

٤٢

فكر وفن

سنة ١٤٢٠





الافتتاحية

في هذا العدد (٤٢) اهتمنا بثلاثة محاور : - (١) التنوير - (٢) الف ليلة وليلة - (٣) هاينريش بل : كاتباً وإنساناً . وقبل أن نفسر اختيارنا لموضوع التنوير ، نحاول أن نجيب باختصار شديد على السؤال التالي : ما هو التنوير ؟ إن جلّ القواميس الفلسفية تجمع على أنه الاسم الذي يطلق على تيار فلسفي ظهر خلال القرن الثامن عشر . وأنصار هذا التيار وأعداؤه يتفقون جيداً في تحديد مفهومه . فالكاهن مبسلي يقول في « الوصبة » (١٧٢٥) : « ان نور العقل الطبيعي هو وحده الكفيل بأن يقود الناس الى الحكمة والحال العقلي » . وفي جوابه عن سؤال : ما هو التنوير يقول كانط : « لنتمكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك : ذلك هو شعار التنوير » . أما هيغل فإنه يؤكد في « فينومنولوجيا الروح » أن التنوير هو إثبات للعقل . وتعكس فلسفة التنوير ، التحولات الاقتصادية والسياسية والثقافية التي شهدتها أوروبا ما بين القرن السابع والثامن عشر ، وخاصة صعود البورجوازية وتوسعها على حساب الاقطاعية . أما جوهرها فهو الدعوة الى استخدام العقل بهدف تحقيق السعادة فوق الأرض . والى حد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ظل « التنوير » الشعار الذي ترفعه أوروبا بأسرها من أجل التقدم والتطور الصناعي والتكنولوجي . ثم رفع نيتشه صوته محتجاً على هذه « العقلانية الباردة » ومجدد الجنون . أما « رامبو » فصرخ قبل أن يتيه في حرائر بحثاً عن الثروة : « الملم ! النبالة الجديدة ! العالم يسير الى الأمام ! لكن لماذا لا يلوي رأسه اللواء ! » . وقد ازداد نقد « التنوير » و« العقلانية » حدة مع السرياليين ومع الوجوديين (كالي خاصة) . والآن أصبح من الموضوعات الساخنة التي تشغل المفكرين والكتاب والفنانين وحتى الحركات الصغيرة المدافعة عن الطبيعة وعن حماية البيئة . وهو ما دفع بنادق مثل « فريتر رادتس » لكي يقول في إحدى مقالاته : « ان التنوير يأكل أبناءه » ! إن جملاً مثل : « ان هروبي - اذا ما كان هناك هروب - سيكون باتجاه السر » (بيتر هاندكه) أو : « الحياة تبدو وكأنها دوران في نفس المكان » (توماس براس) أو : « كان من الأحسن لو بقينا بحيوانات برمائية » (غوتفريد كونرارت) أو : « لم يعد يوجد لا تقدم ولا هدم . ليس هناك غير دائرة » ! (رودولف هوخهوت) تعكس الى حد كبير انحسار التيار « التنويري » بل وتبرز ان جملة ديكرارت الشهيرة : « أنا أفكر . إذن أنا موجود » ! فقدت صبرها في عصرنا الراهن وأن « التنوير دمر العالم ولم يغير وضع الانسان نحو الأفضل ، وإن كل الثورات التي اشتملت بهدي منه تحولت بعد ذلك الى آلات الموت » ! . وفي إطار هذا المحور اخترنا في البداية نصاً لادجار موران ، يحاول فيه إبراز النقاط الأساسية في الجدل القائم الآن حول « التنوير » ثم نصاً لكروكوف يفسر فيه معاني نص كانط الشهير : « ما هو التنوير ؟ » وبعد ذلك اخترنا نصاً حول الفيلسوف الألماني الكبير جيورج هابرماس يوضح معنى « العقل المنفتح » وآخر حول العلاقة بين الأدب والعقل ، ثم نصاً حول المفكرين لوكاتش وإرنست بلوخ كمناضلين كبيرين من أجل العقل . وأخيراً اخترنا نصاً حول فكرة الرؤيا التي بدأت تبرز من جديد ضمن الأعمال الفنية والفلسفية والروائية . وفي الجزء الثاني من المحور نفسه ، اخترنا نصين : الأول للكاتب المصري سلامة موسى ، والثاني للمفكر التونسي هشام جعيط . وهما ينتسبان الى جيلين مختلفين . فسلامة موسى من « الجيل الكبير » الذي تأثر بالعقلانية الأوروبية وتحمس تحمساً شديداً للتنوير وأسس الحداثة العربية في مجال الإبداع والكتابة والتفكير . أما هشام جعيط فهو من جيل مرحلة ما بعد نسكة حزيران ١٩٦٧ ، الذي يسعى الآن لفهم فشل « النهضة العربية » وتفسير أسباب الانكسارات التي يواجهها الى حد هذا الوقت .

في المحور الثاني الخاص بالف ليلة وليلة ، حاولنا من خلال دراسة حول تأثيرات هذا الكتاب الرائع على الحركة الرومانسية الأوروبية عامة والألمانية خاصة ، ومن خلال نص لهوفنزنال - وهو أحد المتأثرين الكبار بالف ليلة وليلة ، أن نبرز قيمة هذا الأثر الخيالي العظيم وأن نوضح كيف أن الأوروبيين استفادوا منه أكثر مما استفاد منه أصحابه - أي العرب - .

أما المحور الثالث فقد خصصناه للكاتب الكبير هاينريش بل الذي توفي في ١٥/نوفمبر/يوليو من هذا العام عقب حياة مليئة بالإبداع وبالنضال من أجل السلام والكرامة الإنسانية . وقد كان بل واحداً من أهم الذين جسدوا في أعمالهم مأساة ألمانيا خلال الحرب ، ثم أوضاعها في ما بعد . وفي ركننا الخاص بالأدب والفيلم نشرنا حواراً مع المخرج الكبير فولكر شلوندورف حول « شرف كارلينا بلوم الضائع » المأخوذ من قصة بنفس العنوان للكتاب الراحل هاينريش بل . أما بقية العدد ، فقد خصصناه للمحدثين مع المعارض الكبرى التي شهدتها ألمانيا الفيدرالية هذا العام : معرض رسوم باول كلي - معرض التأثيل الفرعونية - معرض الفن التركي ، وأيضاً عن المعهد الشرقي في هامبورغ وعن الكتب والمجلات الحديثة والتي لها علاقة بالعالم العربي - الاسلافي .

(المحرر)

الفهرست

- ٤ ادجار موران : ملاحظات حول جدل ساخن : العقل والواقع الجديد
Edgar MORAN: Betrachtungen zu einer heissen Kontroverse
- ٨ كريستيان جراف فون كروكوف : لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك! التنوير لا يزال مهمة صعبة في ألمانيا
Christian Graf von KROCKOW: Habe Mut, dich deines eigenen Verstandes zu bedienen!
Aufklärung ist in Deutschland immer noch ein mühseliges Geschäft
- ١٤ إيغو فرنستل / كارل رادتس : مناخلان في سبيل العقل
بمناسبة الطبعة الجديدة للوسائل المتبادلة بين إرنست بلوخ وجيورج لوكاتش
Ivo FRENZEL/Fritz J. RADDATZ: Zwei Streiter für die Vernunft
Zur Edition des Briefwechsels zwischen Ernst Bloch und Georg Lukács
- ٢٠ إيغو فرنستل : محاولات لانتقاد العقل - خطاب الحدانة الفلسفي
Ivo FRENZEL: Jürgen HABERMAS - Versuch einer Rettung der Vernunft.
Der Philosophische Diskurs der Moderne
- ٢٢ في العلاقة بين الأدب والعقل
Über das Verhältnis zwischen Literatur und Vernunft
- ٢٨ ميخائيل شنايدر : هل تكون الرؤيا مصدراً للأمل ؟
Michael Schneider: Apokalypse - ein Prinzip Hoffnung ? Ernst Bloch zum 100. Geburtstag
- ٣٦ سلامة موسى : تربي العلمية
Salama Musa: Über meine geistig-intellektuelle Erziehung
- ٤٢ هشام جعيط : الانتاج الفكري العربي منذ عشرين سنة
Hijam DJAIT: Eine Analyse des arabischen Denkens der letzten 20 Jahre
- ٥٠ اردموت هالر : شهرزاد والحركة الرومانتيكية في أوروبا
Erdmute HELLER: Sheherazade und die romantische Bewegung in Europa
- ٦١ هوجو فون هوفنستال : حول الف ليلة وليلة
Hugo von HOFMANNSTHAL: Über Tausendundeine Nacht
- ٦٢ فريتر ي . رادتس : رحيل هاينريش بل ، حامل جائزة نوبل للآداب .
وفاة مرجع - هاينريش بل : شاعر ، واعظ ، ماتي ، وحالم
Fritz J. RADDATZ: Abschied vom Nobelpreisträger für Literatur
Der Tod einer Institution - Heinrich Böll: Poet und Prediger - Materialist und Träumer.
- ٦٦ هاينريش بل : في الأدب والأخلاق والسياسة
Heinrich BÖLL: Über Literatur, Moral und Politik

يقدم الناشر ودال النشر شكره لكل من ساهم بمومته في إعداد هذا العدد

إدارة التحرير : Adresse der Redaktion: Erdmute Heller, Franz-Joseph-Str. 41, D-8000 München 40

©Inter Nationes, Bonn, F. Bruckmann, München

- ٦٧ قصيدة هاينريش بلّ الأخيرة
Heinrich BÖLL'S letztes Gedicht
- ٦٨ مونیکا ماورر : «فكر وفن» تحاور المخرج فولكر شلوندورف - هاينريش بلّ وكاترينا بلوم
Monica MAURER: Zeitgeschichte, Literatur und Film. Interview mit Volker Schlöndorff zur Verfilmung der Böll-Novelle „Die verlorene Ehre der Katharina Blum“.
- ٧٤ هاينريش بلّ : نادرة للحظ من اخلاقية العمل
Heinrich BÖLL: Anekdote zur Senkung der Arbeitsmoral
- ٧٦ إلفريده جروس : الفن التركي في العهد العثماني
Elfriede GROSS: Türkische Kunst und Kultur aus osmanischer Zeit.
Zu einer Ausstellung in Frankfurt und Essen
- ٨٢ ديتريش فلدونج : علم الآثار المصرية وآفاق التسعينات
مؤتمر علماء الآثار الدولي الرابع المنعقد في ميونيخ عام ١٩٨٥
Dietrich WILDUNG: Ägyptologie für die Neunzigerjahre.
4. Internationaler Ägyptologen-Kongress München 1985
- ٨٤ حبيب جتاهاني : ملاحظات حول المؤتمر السادس عشر للمعلوم والدراسات التاريخية
Habib JANHANI: Internationale Historiker-Konferenz in Stuttgart
- ٨٥ ستيفان فيلد : حول الملتقى الثالث والعشرين للمستشرقين الألمان
Stefan WILD: Marginalien zum 23. Deutschen Orientalistentag
- ٨٦ عزيز القزاز : معهد الشرق الألماني في هامبورج
Aziz AJ-QAZAZ: 25 Jahre Orient-Institut Hamburg
- ٨٨ ستيفان جرون : ملاحظات حول رسوم ياول كلي
Stefan GRÜN: Paul Klee als Zeichner
- ٩٠ الأحداث الثقافية في ألمانيا
KULTUR-CHRONIK
Literaturpreise und neue Bücher über die arabische Welt
- ٩٥ تحية الى هانس كالا وزوجته السيدة زيغريد
Hommage an Hans und Sigrid Kahle
- ٩٦ تحية الى الدكتور هورست شيرمير
Abschied von Dr. Horst Schirmer

صورة الغلاف: فريدنبرايث هوندرتاسر : سبع وتسعون رأساً ، ١٩٥٢ ، مجموعة بازيل جولاندريس ، باريس ، لوزان ، أثينا .
الغلاف الداخلي الأول : كاي نيلسون - رسوم مستوحاة من قصص ألف ليلة وليلة
الغلاف الداخلي الثاني : كاي نيلسون - رسوم مستوحاة من قصص ألف ليلة وليلة
(هوندرتاسر ، رسم تمساري ، تحفل سنة ١٩٨٤ على جائزة «الفن والحيط» وذلك من أجل أعماله الداعية الى حياة إنسانية أفضل ، وإلى ضرورة مقاومة التلوث الذي يهدد الطبيعة والانسان في آن مما .

تظهر جملة «فكر وفن» العربية مؤنفاً مرتين في السنة : النسخة ١٤ مارك ألباني ، النسخة المطبوعة ٧ مارك ألباني .
تقدّم طلبات الاشتراك الى دار النشر .

الطباعة : P. Bruckmann KG, Graphische Kunstanstalten, München

صف الحروف : Orient-Satz, R. Nickodaim/Berlin

الترجمة : د . محمود عمري ، د . م . علي حشيشو ، د . أ . حلي ، د . أ . خواله ، د . م . عريفة حمدي .

ملاحظات حول جدل ساخن : العقل والواقع الجديد

نقد العقل : «إن العقل يتعامل مع الأشياء كما لو كان ديكتاتوراً . وهو لا يعترف بالأشياء إلا حين يحس أنه قادر على أن يتلاعب بها .» . ويمكن أن يتحول الناس الى أشياء لكي يواجهوا نفس المصير ويخضعوا خضوعاً تاماً لديكتاتورية العقل الحديث . وعندئذ يحدث الاكتال التكافلي لفكرة النظام والكلية في ظل الكليةانية الشاملة . ويقول هوركهايمر وأدورنو : «العقل أكثر كلبانية من أي نظام» . ولتوضيح هذه الفكرة ، أقول بأن الكليةانية لا تكتمل إلا حين توحد بين مكونين : مكون ديني/صوفي (مخفي) ، ومكون عقلائي / معقلن . لكن قبل أن أتحدث في هذه المسألة ، لابد أن أتفحص من جديد مسألة العقلنة التي هيمنت من خلال التقنية والبيروقراطية على جميع مجالات الحياة . ان مبدأ العقلنة هنا يربط بين النظام/الكلية/الدقة وبين فكرة الاقتصاد والانتاج والفاعلية .

وقد توصلت البيروقراطية ، اعتدأداً على الدقة العقلانية ، الى أن تتطور بشكل غيف ، حتى اننا أصبحنا نحس جميعاً بتقلها تماما مثل ذلك المواطن الغريب ، جوزيف ك . الذي جعله فرايز كافكا بطلاً لقصته «الحاكة» . إنها ليست هناك في الدواوين ، والوزارات ، والادارات ، إنها في أعماقنا ، وفي تلك المناطق الخفية من ذواتنا .

أما الصناعة فأنها أصبحت تنظر الى الأشياء من زاوية واحدة : هل هي صالحة أم غير صالحة . وداخل المعامل تحوّل البشر الى مجرد آلات تقوم بنفس الحركات لساعات طويلة من أجل «ضمان الفاعلية في مجال الانتاج» . غير أنه بمرور الزمن ، تبين لنا جميعاً أن هذا الأسلوب لا يمكن أن يضمن النتائج المرتقبة . بل وربما يزيل الرغبة في العمل نهائياً . ولهذا السبب أخذت العقلنة متعرجاً آخر . وأخذت تطبق أساليب جديدة مثل تشريك العمال في الماربيح ، وفي التسيير بهدف ضمان الانتاج

«العقل أن يحدد نفسه الا حين يقدم على إلغاء ذلك المطلق الغريب الذي هو مصدر كل هيمنة عيما .»

(أدورنو - هوركهايمر : جمالية العقل)

«مهمتنا أن نوسع عقلنا حتى يتمكن من أن يدرك فينا وعند الآخرين ما يسبق العقل وما يتجاوزره» .

(مارلو بونتي : إشارات)

خلال مرحلة طويلة ، بدت العقلانية الانسانية ، التي كانت احدى النتائج الكبرى للثورة التنويرية ، وكأنها تجسّد التقدم والتحرر الحقيقي . وكان ذلك واضحاً من خلال صراعتها المتواصل والعنيف أحياناً ضد الأساطير والأديان . كما أن رغبتها في الانتشار على نطاق واسع ، وحتى في تلك الأماكن الضائعة والخفية ، جعلت منها ركيزة قوية يعتمد عليها المسحوقون والمظلومون والمستعمرسون لاستعادة حريتهم وكرامتهم وإنسانيتهم . ورغم ذلك فإن المبادئ التي دعت اليها العقلانية الانسانية ، وسعت الى نشرها بين الشعوب بحماس شديد ، ظلت «مجردة» ، إذ أنها لم «تحترم» الفروق بين الثقافات . وهو ما أدى مع مرور الزمن ، الى ما يسميه البعض الآن «بالامبريالية الثقافية» ، تلك التي تلغي وجود الثقافات الصغيرة والبدائية بل أنها تحقرها ، وتسعى الى تدمير قيمها ومرتكزاتها .

لقد تحدث «هيديجر» Heidegger عن ذلك العنف الذي يخفي وراء إنسانية العقل الأيوية . فالطبيعة مطالبة دائماً بأن تمثل أمام محكمة العقل ، وأن تخضع لمختلف التجارب . والعلم ، عوض أن يغمر الطبيعة بحبه ، يدمرها ويسعى جاهداً للسيطرة عليها سيطرة كلية . والعالم بأسره محكوم عليه بأن يخضع للتكنولوجيا بدعوى أنها قادرة على توفير السعادة الحقيقية .

ورغم أن «هوركهايمر» و «أدورنو» هما على طرفي نقيض مع هيديجر ، فانهما يصلان الى نفس النتائج بخصوص مسألة

والحفاظة على النظام . ونعتقد أن مثل هذا الأسلوب الجديد في مجال العقلنة أكثر إيجابية ، لأنه أكثر إنسانية .

ويمكن القول ، أن التصنيع ، والتقدم ، والبيروقراطية ، والتقنية ، تطورت كلها حسب القواعد والمناهج العقلانية . وقد وقع استعمال الأشخاص كما لو كانوا مجرد أشياء لا تصلح إلا لأغراض تخص النظام والاقتصاد والفاعلية . غير أن هذه العقلنة لم تأت أحياناً بالإنسانية ، وبلمب القوى السياسية والاجتماعية المختلفة . هذا بخصوص الغرب . أما في المناطق الأخرى من العالم ، أي تلك التي نسميها البلدان الفقيرة أو المتخلفة ، فانها إزدرعت مثل السرطان والتهمت الكثير من القيم .

من هنا يمكننا أن نتابع السير العملي للعقلنة :

(١) يمكن أن تكون العقلنة إنسانية ، حين يتعلق الأمر بتنظيم المجتمع ، وتسهيل حياة البشر ، وتطبيق تلك المبادئ التي يطمحون إليها مثل الحرية والعدالة والمساواة . وهي «إمبريالية» حين تدهام العالم بأسره وتضاعف من شقاء الشعوب التي تناضل من أجل استقلالها ، والحفاظة على ثقافتها ، وحضارتها .

(٢) وتكون العقلنة كلياينة حين تنفصل عن الانسانية وعن النقد المناهض للدين ، وتتحد مع أسطورة كبيرة وعميقة . وعندئذ يمكن أن نرى أن العقلانية والعقلنة جذ مزدوجين وذو وجهين : وجه تقدي وآخر رجعي . غير أن الوجه التقدي مرتبط بالعقلانية / الفكر التقدي / الانسانية . وإذا ما انفك هذا الرباط فان العقلنة تبدو عارية ، وعندئذ يمكن أن تلتمح بالقوى السوداء لكي تؤسس الكليانية التي كان «هوسرل» Husserl يسميها «عقلانية الأهرامات» .

هل ثمة عقل جديد ؟

إن العقل الجديد ، إذا ما وجد ، لا يمكن أن يكون الامتداد ومسكوناً بالشك . أي أن يتأسس على العلاقة القوية والدائقة ، وفي نفس الوقت ، المكلمة ، والمعتمدة على المناصاة والنضاد ، بين العقل واللاعقل .

(١) ليس هناك «العقل الآله» ، أي العقل المتفارق

والمطلق والمكتفي بذاته . إن مثل هذا العقل الخالص ليس سوى أسطورة مغلوطة . ومهمتنا الآن ، أن «نستكشف» الجانب الأسطوري ، الشاسع والعميق للعقلانية . «(أكسيلوس: آفاق العالم) . عندئذ فقط ، يمكن أن نكتشف أن العقل هو بعد ذاته أسطورة رغم أنه يدعو إلى محاربتها وإزالتها من أذهان الناس .

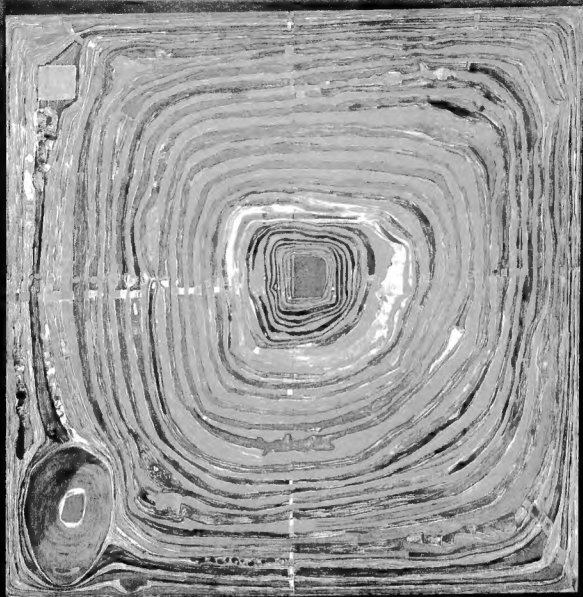
(٢) إن اللقاء بين العقل والموضوع يحدث صدئاً ما يؤدي إلى يلغي كل واحد منهما الآخر . ومن الأكيد أن العقل الكلاسيكي عاجز عن قبول الواقع الذاتي . ولهذا فانه لا يستطيع البتة إدراك تلك الذاتية المستمرة تحت العقل .

(٣) هناك «تدمير ذاتي من جانب العقل نفسه» (هوركهايمر - أدورنو . حين يرفض العقل اللاعقلي الذي يجسد المقدس ، وأيضاً الوجود والحياة) ، وحين يخفي لاعتقالاته نفسها ، وحين يطور جانبه العقلاني ، العنيف والجوربي باستمرار فانه في الآن نفسه يقوم بتقوية وتنمية لاعتقالاته نفسها التي تصبح فجأة جنوناً وفناء .

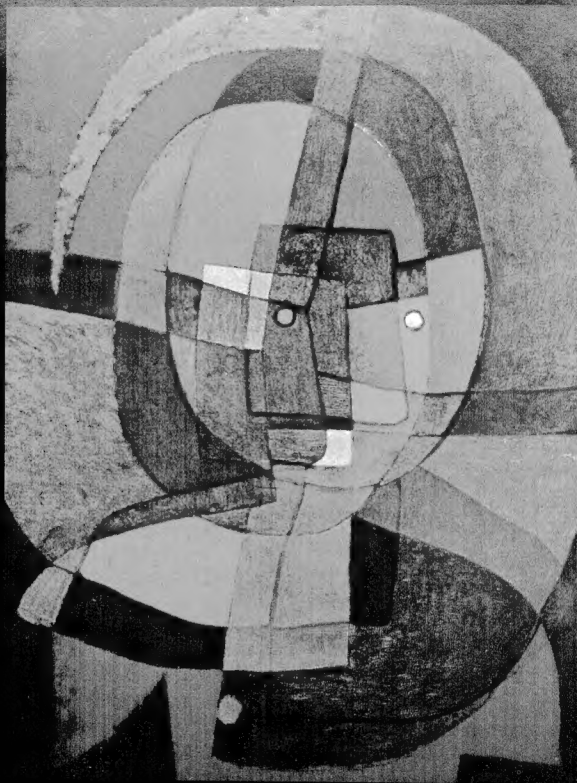
(٤) من هنا يمكن القول أن هناك تحولات في العقلانية . هناك لحظة ما يصبح فيها العقل واحداً ومختلاً ، واللاعقلي عاتلاً وحكماً .

(٥) ليس علينا فقط أن نكتشف جنون العقل . علينا أيضاً أن نستكشف عقلانية الجنون . إن موضوع الحكمة / الجنون معقد ولكنه غني بالنسبة للفكر الغربي منذ الإغريق إلى إيرازموس Erasmus .

ويكفي أن حدث ذلك الانفصال المؤلم في العقلانية الجديدة لكي تتعارض هذان العبارتان . ولابد من التذكير من أن اللاعقل لا بد أن يلعب في مجاله نفس الدور الذي لعبته الفوضى في العلم الجديد (Scienza Nuova) . أي أن يكون أساسياً في كل حركة تجديدية وفي كل شكل من أشكال الخلق والإبداع . «إن اللاعقل هو المصدر» قال نيتشه Nietzsche . وهو يوضح : «في كل مكان تقريباً ، يكاد الجنون هو الذي يفتح الطريق أمام الفكر الجديد ، ويرفع المنع عن عادة ما أو عن خرافة محترمة» . ومن قبله قال أفلاطون Platon : «إن الجنون هو الذي جلب كل الحيرت تقريباً إلى الإغريق» .



فریدنریش هودر: الطريق الكبير ، ١٩٥٥ .



مدول کبی : دینامیکی رانس .

لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك ! التنوير لا يزال مهمة صعبة في ألمانيا

وسوف يتكفل غيري يتحمل مشقة هذه المهمة الثقيلة . أما أن أغلب الناس (وفهم الجنس اللطيف بأكمله) يشفق على نفسه من التقدم خطوة واحدة على الطريق إلى الرشد ويمدونه أمراً شديداً الخطر عليهم بجانب صوبته ومشقته ، فقد تكفل بإقناعهم بذلك أولئك الأوصياء الذين تكمروا بالأمساك بزمام أمورهم وتفضلوا بفرض رقابتهم عليهم . فبعد أن دمغوا حيواناتهم الأليفة بالغباء وحرصوا كل الحرص على أن يحولوا بين هذه المخلوقات الوديدة وبين التجرد على القيام بخطوة واحدة خارج «المشاية» التي حبسوا فيها خطاهم ، أخذوا يبينون لهم هول الخطر الذي يتهدم لو حاولوا السير بمفردهم . بيد أن هذا الخطر ليس كبيراً كما يدعون ، لأنهم سيتعلمون في النهاية كيف يسهرون على أقدامهم بعد أن يتعثروا عدة مرات . ولكن مثلاً واحداً يضرب على بعض من سقط في الطريق كفيلاً بأن يخيف الناس ويصدم عن الشروع في أي محاولة أخرى .»

نقد النقد

مرة أخرى جل بسيطة ومعبرة فهي توضح الأمر من ناحيتين : الأولى : هناك مصالحة في إبقاء الناس على قصورهم أو بالأحرى إن محور القضية هو تحقيق السيطرة .

الثانية : تصبح فرصة الأوصياء الذين نصبوا أنفسهم أولياء على الناس صعبة إذا لم يجدوا في الناس ذاتهم ما يسميه كانط بالكلل والجليل .

حقاً إنه لمن المريح أن نعوي مع الذئاب ، وأن تسبح مع التيار وأن تكون شجاعاً مقرونة بجمهور كبير ، لكنها شجاعة كنيية المظهر وجين مقنع . أما غير ذلك فيطلب «الشجاعة الأدبية» وهي شيء نادر . «من الصعب إذن على أي إنسان أن يتمكن بمفرده من

«التنوير هو خروج الإنسان من قصوره الذي اقترنه في حق نفسه . وهذا القصور هو مجزءه عن استخدام عقله إلا بتوجيه من إنسان آخر . ويقع الذنب في هذا القصور على الإنسان نفسه عندما لا يكون السبب فيه هو الافتقار إلى العقل ، بل إلى العزم والشجاعة اللذين يحفزانه عن استخدام العقل بغير توجيه من إنسان آخر . لتكن لديك الشجاعة لاستخدام عقلك ! ذلك هو شعار التنوير» .

هذه هي جل المقدمة لمقال بسيط طبقاً لحجمه ، فهو يتكون من ثمان صفحات كاملة تحت عنوان «الإجابة على سؤال : ما هو التنوير ؟ » ، نشر هذا المقال قبل مائتي عام في ديسمبر ١٧٨٤ في «صحيفة برلين الشهرية» - *Berlinische Monats-schrift* ، وكتبه هو إيمانويل كانط . ويا لها من عبارات - كأنها نقوش ! لم يحدث قبل ذلك أو لا يكاد يوجد أحد منذ ذلك الوقت استطاع أن يعبر بهذه الدقة وهذا اليسر عما تعنيه كلمة التنوير . ليست عقيدة ولا مذهباً ، ليست صرحاً تعليمياً ولا نظرة إلى الحياة ، ولكنها خروج الإنسان من قصوره عن طريق استخدام العقل . ولا ينبغي إغفال ضرورة وجود الشجاعة - ويضيف كانط :

«إن الكلل والجليل هما علة رضاء طائفة كبيرة من الناس بأن يبقوا طوال حياتهم قاصرين ، بعد أن خلصتهم الطبيعة منذ أمد بعيد من كل وصاية غريبة عليهم ، وهما كذلك علة تطوع الآخرين بفرض الوصاية عليهم . ويبدو الأمر وكأن كل واحد منهم يقول لنفسه : إن الوصاية عليّ لمرحبة ١ وما دمت أجد الكاتب الذي يفكر لي ، والراعي الروحي الذي يغني ضميره عن ضميري ، والطبيب الذي يقرر لي نوع الطعام الصحي الذي أتناوله ، فما حاجتي لأن أجهد نفسي ؟ ليست هناك ضرورة تدعوني للتفكير ، ما دمت أقدر على دفع الثمن ،



الجانويل كخاط كا رسمه دوبلو .

للرفض غماره : فالمعارضة - وليست الموافقة - هي التي تجبر على التأمل والتفكير . ولذلك يمثل الحوار السقراطي النمط الغربي للتنوير بحيث لا يقوم المعلم بالمخاطبة والتلقين بل يطرح الأسئلة ويتابع السؤال بنقد وبحرية .

«وليس هناك شيء يتطلبه التنوير قدر ما يتطلب الحرية ، وهو في الحقيقة لا يتطلب إلا أبعد أنواع الحرية عن الضرر ، ألا وهي حرية الاستخدام الملي للعقل في كل الأمور .» وهذا تماماً ما فعله سقراط وتمت إدانته بسببه . ويلفت كانط النظر الى مشكلة أخرى : إن التنوير يشكل على أي حال قضية بعيدة الأمد ، لأنه يجب التغلب على عادات القصور المتغلغلة منذ الأزل وعلى الأفكار الجامدة التي تنشأ باستمرار ، «ولهذا

التخلص من هذا القصور الذي أوشك أن يصبح طبيعة ملازمة له . بل إن الأمر قد وصل الى حد أن يمشق هذا القصور بحيث أصبح عاجزاً عجزاً حقيقياً عن استخدام عقله . . ولهذا لن نجد إلا قلة ضئيلة استطاعت بفضل استخدامها لقولها أن تنتزع نفسها من الوصاية المفروضة عليها وتسير بخطى وثيقة مطمئنة.

وماذا بعد ذلك ، لن يفلح التنوير إذا ما أصبح شأنًا فردياً ، ولكنه يشكل قضية مشتركة بين الناس جميعاً ، قضية مطروحة للمناقشة العامة ، للرأي والرأي الآخر ، للنقد ونقد النقد ، خلال ذلك يمكن أن يبيت الناس الشجاعة في بعضهم البعض وحتى - أو بالأحرى - عندما تتعارض الآراء .

فلا يمكن أن يصل الجمهور إلى التنوير إلا ببطء». ولكن هذه مسألة تختلف حولها الآراء. ألا يمكن اختصار الطريق إلى الرشد، وتغيير كل شيء دفعة واحدة، بحيث يتم بالقوة إسقاط الأوصياء غير الشرعيين الذين فرضوا أنفسهم؟

اندلعت الثورة الفرنسية في فرنسا عام 1789 بعد خمس سنوات فقط من كتابة كانط لمقاله. كانت ثورة نابغة من روح التنوير أو على أي حال مستندة إليها. لقد آذن بحر الحرية بالهجي.

وإذا رجعنا إلى كانط فسوف نجد لديه في هذا الوقت الميكرو رداً مشوباً بريبة غريبة:

«... وربما نجحت ثورة في القضاء على الاستبداد الفردي والظلم القائم على الجمع والتسلط، ولكنها لا يمكن أبداً أن تؤدي إلى إصلاح حقيقي لأسلوب التفكير، بل إن ما يستجد من أحكام متحيزة لن يستخدم - شأنه في هذا شأن الأحكام القديمة - إلا في تضليل عامة الناس وجرم وراعه».

ويقول كانط ما أثبت الزمن صحته منذ ذلك الحين: إن الانقلاب لا يأتي غالباً بالحرية المرجوة، بل يأتي في أكثر الحالات بالازدباب فقط، متبعواً بسيطرة القوة الجديدة - والأكثر قسوة - في ظل تغيير ظاهري للسلطان.

أما مصير التنوير فينتج عنه طامة ذات شقين: يتحول الحساس الذي كان في البداية إلى خبيثة أمل، والكثيرون ممن كانوا مستعدين لبذل كل شيء في سبيل الانتفاضة الكبرى يتحولون إلى المسكر الرجعي. أما معلوم فأنهم يصابون بالذعر ويلجأون إلى القمع الوقائي، وال خوف يولد الاعتداء، ومحاربة الأرباب تولد الازدباب، والقوة تولد القوة. ويصف كانط تلك العلاقات بطريقته وهو يبالغ فريدريك الثاني ملك بروسيا:

«لا يستطيع أن يقول ما لا تجرؤ عليه دولة حرة إلا من لا يخشى الظلام وهو متنور ويملك في نفس الوقت زمام جيش جرار جيد التنظيم لضمان الأمن العام: فكروا ما شتم وفيما شتم، فقط أطعموا. هكذا يظهر هنا مسار غريب غير متوقع للأمور البشرية، على نحو ما يظهر في ميادين أخرى، فيبدو كل شيء فيه، إذا نظرنا إليه في مجموعته مجيباً، زائراً بالمفارقات».

ومنذ عام 1789 تخشى القوة الفكر، بل تتخوف من طلال الفكر. تبدأ حقبة طويلة من القهر، والحق أنها قد بدأت من قبل في بروسيا حيث صدر عام 1788 قانون رقابة جديد، أي بعد سنتين فقط من موت فريدريك الأكبر، ومنذ ذلك الحين ظل تاريخ التنوير في ألمانيا تاريخ معاناة. لم يكن التنوير هو الذي أحدث تأثيراً عميقاً في ألمانيا، وإنما الرومانتيكية.

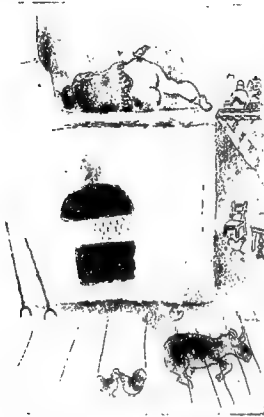
لم يظهر النور الساطع للفكر النقدي في «ألمانيا» بحق، بل المسمات الرومانسية المظلمة تحت أشجار البلوط في ضوء القمر عند طلوحنة الهواء، وأمام أطلال العصور الوسطى.

هل نحن «مواطنون راشدون»؟

في النهاية ثبت أن كراهية كل رموز التنوير وصيغها قد أصبحت طاعية، لأنها كانت في الباطن كراهية ذاتية. إن التخلي بالذات عن شجاعة استخدام العقل يولد القصور والشعور بالذنب، وهو ما لا يحتمله الإنسان بطبيعة الحال وما لا يعترف به، وإنما يكتبه في الأعماق ومن ثم ينظر للأخريين الذين تصدوا للتححر بلهم مفسدون.

حقيقة: إن تولى الاشتراكيين القوميين (النازيين) السلطة عام 1933 ورحيب الجماهير بذلك على أنه «الانتفاضة القومية»، كذلك تدمير الديمقراطية وحرق الكتب والحرقان من حماية القانون والتشريد وإعدام الفكر الناقد وإصدار البيانات وممارسة «مبادئ الزعيم» Führer، كل ذلك كان يعني في جوهره الثورة المضادة للحرية والمساواة. كان يعني الالغاء التام للتنوير بفهوم كانط، وكان المعنى الخفي لشعار «الحل الحاسم» هو الخلاص من عبء الرشد.

ولكن كيف يبدو الأمر بعد عام 1945؟ وكيف هو اليوم عام 1984؟ أم تنفجر الملاح والملاقات تنفراً حاسماً؟ أم نصبح ديمقراطيين أي مواطنين راشدين؟ بالتأكيد، ومع ذلك تبقى الشكوك. ولذلك إذا تأملنا أن كتب أو بحثنا على سبيل المثال في موسوعة بروكهاوس Brockhaus تحت كلمة التنوير لوجدنا جلاً مثل هذه: «قد أدى الانتعاش بأن كل الناس في الأصل متساوون وعقلاء وجيدين إلى إيمان كبير مفرط على الأغلب بفاعلية التعليم وبقدرة الإصلاحات الاجتماعية على تحقيق السعادة وتقدم البشرية... الاعتقاد في أمان التقدم ورفاهية التقدم أصبح مشكوكاً فيه، وبالرغم من



مارك شاعال : محمول .

قصة العقل الذي أصبح متكبراً ، ومن هنا يتم ذكر صوفيين كقصة مثل «المعلم إكهارد» Meister Eckehard بالإضافة إلى أنبياء الديانات ومؤسسيها ، بينما لا يدور الحديث حول مفكرين ناقدين أمثال ديكارت وفولتير وكانت أو بوبر .
ثانياً : ميخائيل إندو : «حكاية بلا نهاية» . تلك هي المفسات والمهمسات القديمة الحديثة التي لا يمكن إغفال صوتها تماماً ، كما لا يمكن إغفال صور المروء من تعقيدات عالمنا الحاضر إلى الرومانسية والخيال . وبالمناسبة فانه ظهر في تلك الأثناء فرع متكامل من الأدب المتشابه .

ثالثاً : فرانس الت : «السلام شيء ممكن - سياسة خطبة الجبل» وفيها : «اتسع عالمنا ولكن طبيعتنا الاخلاقية ستبقى

ذلك ما زال حتى اليوم هو عصب الايديولوجيات التي تقرر مصير العالم في الشرق والغرب» .

آراء شاذة : في مقال بروهكهاوس أيضاً شاء يجعل نقيضه في طياته ، هذا الشأن موجه الى جوتفريد افرايم ليسنج Lessing الذي يعد الى جانب كانت أعظم رجال التنوير الألمان : «لقد بقي حبيساً لفكر التنوير ولكنه كان عميقاً ومتنوعاً في داخله لدرجة أنه ساهم في التغلب على العقلانية المتعالية أو المعتدة بنفسها والتي أصبحت جامدة كالقيد» . غموض وانقسام : فن ناحية يردد عصرنا صيحات الحرب في سبيل بلوغ الرشد : لتسقط كل أنواع الوصاية . الشعار هو التحرر : تحرر الطلاب من الأساتذة ، المطالبة بـ «نقد» في جامعة «نقدية» - من ذا الذي يعد نفسه اليوم تلميذاً «لأساتذ» ؟ حتى «الصبية» لا ينبغي أن تُطلق عليهم تلك التسمية . عموماً ، تحرر الشباب من عامل السن ، وتقدم سن الرشد حتى من الناحية القانونية .

تحرر المرأة من الرجل ، الأقليات من الأغليات ، الرجال والنساء الشواذ من المعايير الجنسية الطبيعية ، أو أيضاً تحرر المواطنين من وصاية السلطات ، المبادرات الشعبية التي تنتشر انتشار النار في الهشيم ، الرغبة في المساهمة في اتخاذ القرار وفي المشاركة ، الديمقراطية ليست على أنها شأن من شئون الأحزاب والمؤسسات ، بل الديمقراطية المباشرة التي تتبع من القاعدة .

ومن الناحية الأخرى نرى صفار السن بمجرد أن يشبوا عن الطوق ، يعاودون البحث عن الش ودفعه مرة أخرى ، وعن التعايش الجماعي وعن السكن المشترك . فالشعور مطلوب وكذلك المعاشية . الواحد البسيط هو كل شيء ، وليس المركب المعقد - الالتزام المفاضلي بدلاً من الارتياح والابتعاد التهدي . حتى علماء المستقبل لم تطور اقتصادي ، وبالمثل الكهنة والمتصوفون وكتاب الأساطير . ويزداد الأمر وضوحاً عندما ننظر إلى النجاح الكبير لبعض الكتب في السنوات الأخيرة لأنها تبين من خلال نجاحها الهائل أنها قد أصابت عصب العصر . لنذكر ثلاثة أمثلة :

أولاً : اريش فروم : «أنتك أم نكون - الأسس الروحية لاجتماع جديد» . وهنا يصل المرء إلى «الكنيونة» الايجابية عن طريق التمتع الصوفي - و«الملكية» السلبية على العكس في



متخللة». من منظور التاريخ الفكري يُعد هذا نتيجة للتطور الذي يفتخر به كل المتحررين في عصرنا . ولكن الحقيقة أن عقلنا لم يتحرر بل انفصل عن المسئولية وعن العواطف والدير والحسد . منذ العصور الوسطى ينمو العلم والتكنيك نمواً فريداً ، ولكن ما نعرفه عن الروح فهو أقل بكثير مما كان يعرفه أجدادنا الذين كان لديهم إدراك واضح بمفهوم «الذنوب» . قد أدى التنوير الى تأخير العقل . إن المأزق الذي لطريق مسدود لعقلنا السليم .

دفن مثل الملوك

قال بيتر جلوتس رداً على ذلك : «بكل مودة أقول لكم ، إن من لديه عقول منقسمة في أصله منذ عاك التفتيش حتى الكاردينال شيلمان يجب عليه ألا يعتبر التنوير مسئولاً عن القنبلة الذرية» .

من الناحية التاريخية هناك فارق جوهري بين مفهوم التقدم الاخلاقي للقرن الثامن عشر وبين التقدم الاقتصادي والفني للقرنين التاسع عشر والعشرين . إن إيدال عصر إنساني اخلاقي بزمان اخلاقي وفني ، وتحويل الاهتمام من مشاكل التربية الى مشاكل الانتاج وتوزيع السلع ، بالإضافة الى إحلال الصفة العاملة الفعالة للتنوير بصفة القرنين التاسع عشر والعشرين ، كل هذا أدى الى إنتاج العقلانية المحدودة القائمة على المعرفة الآلية ، وإنتاج ذلك العقل الناقص الذي يحاول نقد القديم . ولكن هذه أفكار طائشة وخطيرة تستهدف الدفع بالعقلانية الغربية الى ملكة الأموات والعودة الى العصور الوسطى .

إن التنوير في ألمانيا مهمة صعبة ، ويبدو أن الأمر سيستمر كذلك . ويصور كارل بور الحال عند موت كانط قبل ١٨٠ عاماً فيقول :

«لقد توفي في كونيغسبرج Königsberg ، المدينة البروسية الصغيرة التي قضى فيها ثمانين عاماً من عمره . عاش لأعوام في عزلة تامة وفكر أصدقاؤه في الاكتفاء برسم دفن بسيطة . ولكنه دُفن كذلك وهو ابن عامل من العمال البسطاء . عندما انتشر خبر وفاته تراحم الناس على بيته . استمر هذا التيار

البشري عدة أيام ، وفي يوم الدفن توقفت الجياسة في كونيغسبرج وتبع النعش أسراب من البشر لا يعرف لها مدى ودفعت جميع أجراس المدينة ولم ير مواطنو كونيغسبرج مثل هذه الجنائز ، كما يقول الذين عاصروا ذلك الوقت» .

ولكن ماذا تعني هذه الحركة الثقافية الغربية ؟ . أكاد أجزم أن كل دفعة جرس في ذلك الوقت ، أي في عام ١٨٠٤ ، تحت الحكم المطلق لفرديريك فيلهلم الثالث كانت تعني لكناط صدى الثورة الفرنسية والأمريكية ، صدى أفكار أعوام ١٧٧٦ و١٧٨٩ .

أصبح كانط لمواطنيه رمزاً لهذه الأفكار ، ولذا حضروا جنازته ليشكروه كعلم وكناد بالحقوق الانسانية وداعية الى المساواة أمام القانون ، وكتكلم باسم الطبقة العالمية الوسطى والى تحرير الذات عن طريق المعرفة ورعاية أهم من ذلك الى السلام الدائم فوق الأرض» .

كان هذا منذ زمن بعيد . أنفق الأمريكيون كثيراً للاحتفال بعيد استقلالهم اللاتين : إن لدعوة كانط للتنوير بريق تلك الكلمات الشهيرة التي خطبها توماس جيفرسون - فهي هنا كبنك تدور حول الحرية ، وبلوغ الرشد ومسئولية البشر الذاتية .

وبالمناسبة فإن كانط يتحدث في نهاية مقاله عن السياسة بطريقة مباشرة : سوف تؤثر الرغبة في التفكير الحر وعمارته على طبيعة الشعب لكي تجعله قادراً على خلق الحرية وتقدير قواعد حكومته التي لا ينبغي عليها أن تعامل البشر كآلاتين أو بتعبير كانط «كآلة» بل وفقاً لكرامته .

لماذا خصصنا إذن عام ١٩٨٤ لرؤية ارويل ، ولم نعر لفيلسوف كونيغسبرج اهتماماً ما ؟ ألا نبحت على الدوام عما يستند اليه تاريخنا ؟

«إن كرامة البشر مقدسة واحترامها والدفاع عنها فرض على سلطة الدولة» هكذا تنص المادة الأولى لدستورنا - فن أين استقينا هذا ؟

مناضلان في سبيل العقل

بمناسبة الطبعة الجديدة للرسائل المتبادلة بين إرنست بلوخ وجيورج لوكاتش

عمل بلوخ الضخم^(١)، ويظهر ارتباط هذا العمل بشخص وحياة مؤلفه، وأخيراً فإنه يُبين أيضاً العلاقة المتناقضة وجدائياً القائمة بين المفكرين العظميين، والتي أدت في سنوات متأخرة إلى جفوة مخصية بينهما. وتُوضح المراسلة بين بلوخ ولوكاتش بجلاء كيف كان هذا الجفاء المتأخر راسخاً فعلاً في هذين الطبعين المختلفين عن بعضهما أيّما اختلاف.

كان جوهر الفن عند بلوخ المبتجع بالحياة هو القلق وعدم الاكتبال، حيث أنه كان يَعتبر أن «العمل الفني» الراجع لا يبدو أبداً كذلك». أما من وجهة نظر لوكاتش (الإن الوحيد وسليل أحد بيوتات النبيل والثراء في بودابست، والذي أثر منذ نعومة أظفاره الزهد في الحياة) فقد كان جوهر الفن عنده هو الانسجام والصرامة الكلاسيكية؛ لقد قال عنه ماكس فيمر M. Weber: «كانت غاية الفن القصوى بالنسبة لوكاتش هي التحرر من الحياة لا التحرر فيها». وبينما يمكن اعتبار بلوخ واحداً من معتنقي فلسفة إفلاطون بين علماء الثقافة الماركسية «الماركسيين» بلّذ أن فكره كان مهتدياً على وجه الخصوص بمقام التراث المثالية العظيمة المعقمة بالأمل، كان لوكاتش على الجانب الآخر دائماً أشدّ حذلقاً ومبالغاً في الدقة عند دراسته للتقاليد المأثورة. غير أن الصفة التي يشترك فيها هي اللام المميّز بأعمال الشراء والمفكرين الألمان، والمقدرة على المعرفة الجامعة الشاملة للتيارات الفكرية، على نحو لا يمد له نظير في الجيل الذي يعيش ويتولى مهمة تلقين العلم في يومنا الحاضر.

لشهر جيورج لوكاتش، الذي درس في هايدلبرج وباريس وبرلين، ومؤلفه عن نظرية الرواية عام ١٩٢٠ الذي كان في بداية الأمر ملتزماً في جوهره بالمثالية الفلسفية. وقد أصبحت

بطلان من أبطال التاريخ الفكري الألماني كانا سيبلانان من العمر هذا العام مائة سنة؛ ها: جيورج لوكاتش G. Lukács (في ١٣ أبريل ١٩٨٥) وإرنست بلوخ E. Bloch (في ٧ يوليو ١٩٨٥). وأنها لمصادفة رائعة أن يتيج إكتشاف غير متوقع في خزانة أحد البنوك في هايدلبرج نشر رسائل إرنست بلوخ في هذا العام الذي يحتفل فيه بذكره المئوية. حوالي مائة من تلك الرسائل موجهة إلى صديقه ورفيق كفاحه جيورج لوكاتش. وإنه وإن لم يكن هناك في هذا التراسل غوى جديدة لفلسفة بلوخ، إلا أنه يتفتح الآن لنظرة في عملية نشوء



إرنست بلوخ.

(١) بمسلة الملتقى Experimentum، في «التجربة الإنسانية لري بلوخ وعمره ٨٩ سنة اللبنة الملتقى لمرح كوك فكري موسوعي، كان نمشاً منذ البداية ليكون «مظلام».

هذه المحاولة التاريخية حجر أساس في تفكيره فيما بعد . «الرواية هي صورة عهد التورط الكامل في الإثم ، ويجب أن تظل الصورة السائدة ، طالما بقي العالم تحت سلطان هذه الأجرام السماوية» . هكذا صاغ لوكاتش كلماته بروعة في نهاية مقاله . كان وظُر لوكاتش ومأربه الاهتمام الى الكيفية التي يتحقق بها إظهار الحقيقة عن طريق الفن والشعر والفكر . إنه السؤال القديم قَدَم الأزل عن العلاقة بين الكون والوعي مقاله . كان هدف لوكاتش الاهتمام الى الكيفية التي يتحقق بها إظهار الحقيقة عن طريق الفن والشعر والفكر . إنه السؤال القديم قَدَم الأزل عن العلاقة بين الكون والوعي الذي شغل بشكله الماركسي المتميز المفكر النظري لوكاتش ما ينيف عن عشرات السنين خلال حياته . وقد مرّ الطريق المؤدي الى هناك بعمل تم إنتاجه في عايتي ١٩٢٢/١٩٢١ وظهر تحت عنوان : «التاريخ والوعي الطبقي» - Geschichte und Klassenbewusstsein . وقد ساهم هذا العمل بصورة إنسانية في التوجيه اليساري لكثير من المثقفين الأوروبيين . وفي نظرة القاهما فيما بعد - عام ١٩٦٢ - على الماضي ، تتصل لوكاتش من هذا العمل الى حد بعيد . كان فكر لوكاتش يدور مراراً وتكراراً حول البرهنة على أن الملاحظات التي نعيها يومياً في العلم والفن تعتمد دائماً على نفس الحقيقة الموضوعية الواحدة . إن قراءة هذه النصوص متممة - أيضاً بالنسبة لشخصي مضطري على ضوء العلوم الطبيعية الحديثة الى دحض تلك الدعوى بوجود حقيقة موضوعية لا مراء فيها .

عندما عاد جيورج لوكاتش عقب الحرب العالمية الثانية الى وطنه المجر أصبح منذ ذلك الحين حجة لها اعتبارها ، إلا أنه كان يُنظر إليه بعين الاتريب والشك من قِبَل الكتلة الشرقية . وبسبب تنديده بالانتاج المبثذل للواقعية الاشتراكية لم يكن له أصدقاء في موسكو . إن عمله الأدبي خراب العقل Die Zerstörung der Vernunft الذي ظهر في السنوات الأخيرة من حياته ، لجدير بالمراء اليوم - أربعون عاماً بعد إنتهاء الحرب - أن يقرأ مرة أخرى . إنه يعلمنا أنه «لا يوجد مذهب في الحياة مثزّة من الإثم» .

ضرورة تحطيم ظاهر العالم القديم ، لكن لا بد رغم ذلك من إنتشال أمله المدفون لكي يفضي به الى عالم جديد . ذلك ما كان يراه لوكاتش كواجب للفن . إنه يتفق في هذه الرؤية

مع بلزاك لامع فلوبير ، ومع توماس من لامع برنخت ولا مع يكتيت بالذات على الإطلاق . «الإنسان هو كائن خلق من أجل تحقيق الانسجام» ، هكذا كان يقول لوكاتش .

إما لإرنست بلوخ فإنه كان يرى أن فرصة الفن تتمثل في إعتصار بُشري عالم جديد تماماً من أنقاض العالم القديم المتخوّق المالك . كان الرأي السائد إبتداء من كافكا عبر بيكاشو حتى أيسلر ويرنخت ، ومن جيمس جويس عبر مالبيتش حتى بروكوفيف هو أن : «الإنسان ليس متكاملًا في عطائه الفني حتى الآن» . ولذلك فإن العمل الفني الحقيقي بالنسبة لإرنست بلوخ يظل دائماً شذرة ، إنه لا يستطيع إلا أن يكون تقريبياً . إنه محاولة لفك غموض حقيقة دفينة وفقاً لرأي فرانس مارك ، الذي كتب مرة يقول : «الصور هي تمثيل لانبثاقنا وظهورنا في مكان آخر» ، خلف كل شعر ، خلف كل نثر يكن شيء لا نعرفه : «حياة الفردوس هي عندئذ بمثابة دودة لإلهة العقل» ، هكذا يكتب بلوخ



لوكاتش .

في تحليله لرواية بريخت «القرصان - چي» - Seerüuber Jenny، المادة في مفهوم المادية لبلوخ هي «منبت الأشياء». إن بلوخ متفق مع قول فلوبر: «Ce qui n'est pas forme»؛ «كل ما ليس مشكلاً ليس له وجود». كان بلوخ مفتوناً بالشائنة الأسطورية التي تدعي أن ميخائيل أنجلو كان يرى في كل كتلة رخام أشكالاً «ناقة» في أعماقه: إن المادة ليست «كياناً» بل «إمكانات».

تفكير بلوخ الخيالي اليوطوي، «أحلامه إلى الأمام»، «مبدأ الأمل» الذي كان يؤمن به، كل ذلك يستمد قوته الحافزة من فكرة «الإمكانية» هذه. نظرية بلوخ الرئيسية هي بالتالي الاختناق بأن تشوق المادة لأن تصبح شكلاً هو خيالة النمو المنتجة الوعي ولعلم النظري ومن ثم للتطبيق العملي. ولكن نظراً لأن الفن لا يمكنه أن يكون إلا تقريباً - أي عملية إنسيابية إلى ما وراء حدود المادة - فإنه لا ينبغي له أن يكون الاثنين ممأ أبداً: لا ينبغي له أن يكون إنكساراً ولا أن يكون كاملاً. لأنه لو كان إنكساراً للوجود لبق دون سر، ودون بُعد. ويعني ذلك إشتداداً إلى المراجع الأدبية: المؤلفون الذين إلتبعوا قاعدة الانكسار «لا يسمون سوى ما هو عادي وسطحي»، إنهم لا يسمون ما يحدث». غير أن الفن الذي يظهر دهاً أشياء غفيرة ومستترة يحوي في جوهره القدرة النضالية على السير قدماً إلى الأمام - وهو لذلك مفهوم سياسي بصفة رئيسية، وإلى حد ما ممارسة ثورية. الفن في وجهة نظر بلوخ ليس له وظيفة التزيين. إنه أمل يريد أن يتفجر. وهو لهذا لا يستطيع أن يخدم ولا أن يؤيد. من واجب الفن أن يكون معادياً لكل ما هو موجود وقائم، يتحتم عليه أن يفتح بالتفجير الشقوق والصدوع.

على نحو مختلف تماماً يفهم جيورج لوكتش واجب الفن. إنه يرى في شئونة التدمير الخلافة لدى بلوخ أترأ من جنون العظمة ومن غرابة الأطوار. ومن موقفه السلمي من الأدب الحديث بدأ من قبل مع المذهب الطبيعي. ويرى لوكتش أن تطور المذهب الطبيعي عبر المذهب التعبيري نحو صامويل بكيت كان طريق ضلال نحو التدهور لا مثيل له. ذلك لأن: الخير والجمال من وجهة نظر لوكتش متطابقان. و دعواه إلى الترابط التفي منقضة تماماً لمفهوم بلوخ حول الفن. إنها دعوى

نطالب بالكيفية. وهذه الكلية لا يجدها لوكتش إلا في الرواية الواقعية - وعلى وجه الخصوص في رواية القرن التاسع عشر حتى توماس من أو في الدراما الكلاسيكية (أو المقلدة للطرار الكلاسيكي). ويرى لوكتش في هذه الكلية إشتداداً أو إلقاء للواقع البغيض بأخر أحسن. إن هدف لوكتش اخلاقي، يطمح إلى تغيير الواقع، وبالتالي الحياة أيضاً عن طريق الفن.

هنا يمكن اختلاف لوكتش ليس فقط مع بلوخ، بل أيضاً مع بريخت. ذلك لأن بريخت لا يريد تغيير الحياة، بل يود تغيير المجتمع. يرى بريخت أن جوهر الفن يمكن في تمثيلة لتناقضات الواقع. في هذا الاختلاف الأساسي بين لوكتش وبلوخ لا يتجلى التناقض في مفهوم كلا المفكرين بحسب، بل يظهر فيه أيضاً التناقض الكامل في الصورة الانسانية لكليهما. وقد تركت هذه الصورة الانسانية المختلفة في السنوات المتأخرة أثرها بشدة أيضاً في العلاقات الشخصية بين من كانا في الأصل صديقين، ثم تقطع وصلتهما ودبت الجفوة بينا أكثر فأكثر على مدى حياتهما.

إن الرسائل المتبادلة بين هذين الرجلين العظميين من رجالات الفكر في القرن العشرين، والتي نُشرت حالياً في عام الاحتفال بالذكرى المئوية لهما - ولأول مرة باللغة الألمانية هي مكتوبة امتدت لفترة من الزمن بلغت سبعين سنة (من ١٩٠٣ حتى ١٩٧٥)، وهي تعطي نظرة عميقة في تطوّر عملية الشقاق الذي دبّ بين هذين الحررين لتلك الخطابات، وفي تركيب الشخصية المختلف تماماً لكل منهما. وأكثر من ذلك أيضاً فإن خطابات إرنست بلوخ إلى جيورج لوكتش وإلى غيره من المعاصرين - من أمثال فالتر بنيامين وماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو وهربرت ماركوزه وغيرهم - تطلع على شبكة من العلاقات الوشيجة بين أساطين الفكر في ذلك العهد، لها أهمية بالغة بالنسبة لتاريخ الفكر في القرن الذي نعيش فيه. وقد أحصل إرنست بلوخ بين هؤلاء المفكرين مركزاً لم يكن وسيطاً بحسب، بل كان أيضاً أساسياً ورائداً، نظراً لما كان يتمتع به من مكانة بارزة. أحد الأسباب التي أدت في سنوات لاحقة إلى القطيعة بين بلوخ

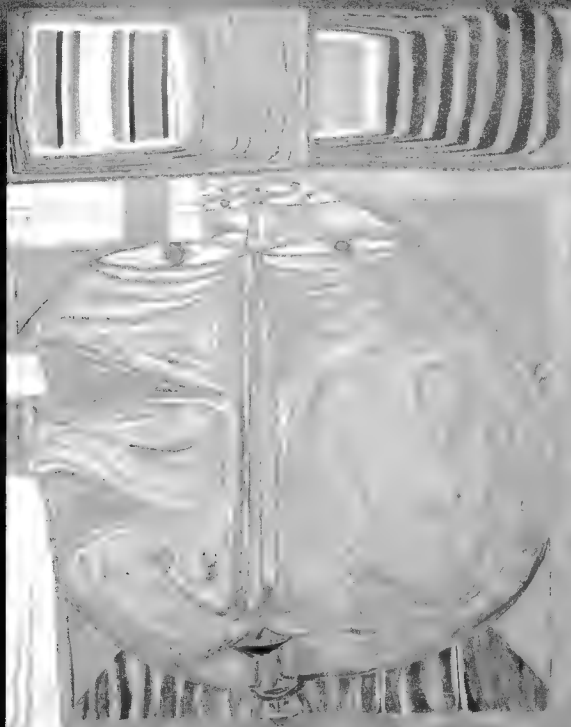
أفضل» لشخص طوّخت به الطوامح ، بيد أنه يلقي مع ذلك نظرة على المستقبل مفتوحة بعزيمة إصرار لا تعرف الكلل وببطاقة إبداع خلّاقة قاهرة ، دون أن يضحّي مع ذلك بالماضي ولا بالحاضر - مثلما فعل بلوخ أيضاً في أعماله : العالم الذي قاضاه وأدانه لم يتخلّى عنه أبداً ، بل كان يحتفظ دائماً بشيء من سحر الأشياء التي قام هو بتجربتها من السحر . هذه النزعة الى التوفيق والتوسط في تفكيره كانت على الدوام متأصلة أيضاً في علاقاته الشخصية التي تحكي خطاباته تاريخها المليء بالتوتر والآثارة .

☆

وصديق صباه جيورج لوكاتش ، عبّر عنه بلوخ في خطاب وجّههُ الى لوكاتش على النحو التالي : «... لأنه لا تتوفر بينك وبينّي على الإطلاق علاقة روحية ممكنة ولا رؤية مشتركة ، ولأنك تستطيع على نحو أسهل بكثير مني الفصل بين الكيان والعمل » . إلا أن عدم القدرة هذه على الفصل بين الكيان والعمل قد أوصل إرنست بلوخ أيضاً الى الجهد : إن خطاباته تقدّم دليلاً على هذه الوحدة بين الشخص والعمل . إذ أن نظرية الأمل تقوم وتسقط بعمل نبيها ؛ ما يبرق من ثنايا تلك الرسائل والأقوال الصادرة عن بلوخ ، والتي تبرز غالباً برمتها من غياهب ظلمة اللحظة التي يحياها إما هي «أحلام بحياة



بالول علي : إدراك الهدف .



فریدنسرایش هوندوتقاسر : رآس ذو نیمین .



فریدون برای هنرستان

محاولات لانقاذ العقل

«تدمير العقل»، وذكّرنا في هذه المناسبة بـ «لؤلؤ شير لجورج لوكاس». غير أن هارماس، خلافاً للوكاس، لا يقبّل إنجازات التقاليد بمقاييس الماركسية الوثوقية. بل أن رهافة تحسه لمواقف المفكرين الذين يتناولهم بالنقاش شديدة جداً، فهو لا يتمكن من عرض آرائه بنبل وراعاة تربية متناهية غصب، بل ينبجس كذلك في استخراج تناقضات المفكرين الذين يبالغهم وتورطاتهم الفكرية التي لا تخرج منا، وذلك من خلال نصوصهم نفسها. فهارماس هنا يأخذ خصومه مأخذ الجد، ويولمهم الاحترام والتقدير، ويجرد حججه النقدية ضدهم من كل منازعة شخصية.

إن من أراد أن يوجه هجوماً فلسفياً على اعتلائية الأعوام المئة الأخيرة، فعليه أن يعود إلى ما وراء نيتشه ويبدأ هناك بأسئلته، حيث كان العقل المتنوّر يحافظ على مركزه الذي لا يتمترسه منازع، أي عند هيجل. فهذا ما يفعله هارماس تماماً، كما فعل قبله كارل لوفيت أو إرنست بلوخ أو جيورج لوكاس أيضاً. لأن على المرء ألا ينخدع من هذا المدخل التقليدي، إن لم نفل «العقيق البالي». إذ أن هارماس يجادل ويقدم الحجج، وهذا ما لا يتضح إلا في نهاية كتابه طبعاً. وذلك دوماً بالنظر إلى منطق فلسفي جديد خاص به. لقد اكتشف هيجل «الذاتية» كبداً للعصر الحديث - عصر العقل. وقد شرح الذاتية بمفاهيم كالحرية والتفكير. وقد حصل البشر في طريقهم من عهد الإصلاح البروتستانتي عبر عصر التنوير وحقى الثورة الفرنسية، على الحرية، ويبدؤوا في التطور كأفراد كما لم يحدث ذلك من قبل إطلاقاً، وحصلوا على حق النقد، وعدم الاعتراف بشيء إلا بعد إيلد الفحص والتدقيق، وأصبحوا قادرين بذلك على الاستقلال في التصرف، بحيث أصبح كل شخص مسؤولاً عما يفعل. وقد أدت الفلسفة كمنفعة تشرّف نفسها، أي كمنفعة خالصة، أدت فوق ذلك إلى فهم العصر لذاته. ويقول هارماس بحق أن هيجل كان أول من جعل التاريخ المعاصر موضوعاً فلسفياً، غير أنه لم يحدد جوهر العصر الحديث غصب، بل أنه فشل بتفكيره أيضاً تناقضات الحداثة وزناعاتها ومظاهرها الاغترابية. وقد أدّى الفضل الحامض بين الإيمان والعلم إلى نقرة العلوم الحديثة. وبذلك إلى السيطرة التقنية الاقتصادية على الأرض بصورة تزداد كثرة ومحملاً. وقد انهارت وحدة

كتب يورغن هارماس «خطاب الحداثة الفلسفي»

Jürgen HABERMAS: Der philosophische Diskurs der Moderne.
Zwölf Vorlesungen. Suhrkamp Verlag, Frankfurt am Main.

منذ أُربر نيتشه هيئة الإنسان الأخير في كتابه «هكذا تكلم زرادشت» أخذ كل من الفلسفة والشعر والنقد الثقافي، وبصين متوترة ومؤثرة أحياناً، في الإعلان عن نهاية العصر الحالي. فقد وصف لوزفالد شينجلر سقوط العالم الغربي، كما تكهن هايدجر بنهاية الميتافيزيقا ونادى الأفراد بغير بتدوير التاريخ القائم، كما طرح رومانو غوارديني موضوع نهاية العصر الحديث. ويريب هوفميرتال وريلكه وكافكا في نتائجهم، وكل بطريقته الخاصة، عن وعي قوي جداً بنهاية العصر، وكما يبدو، فإن عصر العقل، الذي لبتدع بكثير من الاندفاع والحماسة المدنية العالمية الحالية، المصددة بالطابع الأوروبي وذلك منذ عهد التنوير باسم التقدم والحرية والمساواة والتسامح، قد استهلك وأشرف على نهايته. وتبدو الكوارث السياسية لقرننا الحالي في مفعولها وكأنها أدلة وبراهين مؤيدة لتنبؤات المنظرين والانبيا السابقين. غير أن هذا الوداع الذهني للحداثة الذي نستطيع ملاحظته في كل مكان اليوم لا يتطرق إلا بتصور العصر لذاته ثقافياً، وليس بديناميكته السياسية والاقتصادية التي ما زالت وثابة لا يعيقها عائق.

غير أن يورغن هارماس يسعى في كتابه الجديد إلى التدليل على أن الجهود الفلسفية للتغلب على الحداثة وللانفراق عنها لم تزد حتى الآن إلا إلى طرق مسدودة وخطرة، فهو ينبري لكشف النقاب عن التناقضات في تفكير هايدجر، وكذلك في تفكير ميلميه هوركاير وأودرونو. وهو يخوض الزلزال الفكري في مواجهة ذيراً وفوكو وباتاي - ثم يهاجم من جديد خصمه الدائم نيكلاس لومان.

ويجدد بنا أن نقول هنا هذه الكلمة مقدماً: إن من أراد لنفسه أن يطالع على النصوص التي لا تخلو من الصوعية لفصول الكتاب المتداخلة بدقة وعناية تامتين، فانه سيلقى متناً خلافاً بكتاباً من كتب الفلسفة الألمانية للجامعة التقليدية في الأعوام العشرين الماضية، أي منذ ظهور كتاب أودرونو «الجدلية السلبية».

إن كتاب «خطاب الحداثة الفلسفي» مؤلف يسعى إلى مواجهة

صورة العالم التي كانت سابقاً تقوم على الإيمان ، وبدأ كل من الاقتصاد والدولة ، والعلم والفس ، والدين والاخلاق ، يستقل شأناً لنفسه حياته الخاصة . كذلك لم تستطع نظرية «العقل التوفيق» التي ابتدعها هيجل أن تحول دون أن يبقى كل تنوير جديلاً ، ودون أن يحمل كل تقدم في طياته خبرات جديدة لجانب السلي .

هذه الموضوعات المعروفة في حد ذاتها والمطروحة بوضوح يرى هابرماس افتتاح خطاب الحداثة . ومن مقومات هذا الخطاب «الذي ما زلنا نخوضها حتى اليوم دون انقطاع ، الإدراك القائل بأن الفلسفة أضررت على نهايتها» . وما لا شك فيه أن الفيزياء وعلم الأحياء وعلم النفس والعلوم التاريخية قد أطلقت لأول مرة مواضيع تهم النظرة الى الكون في القرن التاسع عشر ، فأثرت على كيفية إدراك الزمن دون وساطة الفلسفة . وقد واجهت الفلسفة المحاصرة بهذه الصورة هذه التحديات بطرق مختلفة . ولكن بينما لم يكن هيجل ولا تلامذته المباشرين من اليسار أو اليمين يشكون في إنجازات الحداثة ولا يودون التشكيك في مبدأ الحرية الذاتية القائمة على العقل ، فقد اختلف الأمر عن ذلك لدى نيتشه .

لقد أراد نيتشه أن يكون أول من ينسف العقلانية الغربية ويفجرها . كما يقول رأيي مركزي لدى هابرماس ، فإن اللاإنسانية عند نيتشه هي التحدي الحقيقي لخطاب الحداثة . وبذلك يصبح نيتشه بالنسبة الى هابرماس «محور» الدخول الى ما بعد الحداثة ، ونقطة الارتكاز جميع التطورات الخطيرة التي أدت الى رفض العقل . ولا تبلغ الحماصة الشديدة لدى هابرماس في مناقشته بقدر ما تبلغ في مجالته لأراء نيتشه . فالمفكر ، الذي أراد أن يحل تفكير الأسطورة الديونيسية والنشوة السكرى محل التصرف العقلاني المهادن والخاضع للتقليد العلمي ، غلغلى في نقده للهذبة عن الاحتفاظ بضمونها التحرري .

إن نظرة نيتشه هذه محدودة جداً ، إلا أنها تظل نافذة المفعل بالنظر الى تقبّل الأجيال التالية وفلسفتهم . ويدلل هابرماس على ذلك بصورة رائعة في تفسيره لأراء هايدغر الأخيرة ، الذي يقوم بمحاولة التفوق على نيتشه في تدمير للعقل . وفي هذا السياق تندرج كذلك الفصول الخاصة بالفرنسيين باتاي وديزرا وفوكو ، الذين يستوحون آراء هايدغر فيقدمون صنفاً أخرى من معايير الغروب الممكنة الى اللاعقلانية .

وقد يصاب المرء بالعجب في بداية الأمر لعدم توجّع هابرماس عن نقده ، كتلميذ لامع ، لمعلمه هوركايمر وأودونو ، مؤلفي كتاب جدلية التنوير ذلك الكتاب الذي أحاطه جيل شباب ١٩٦٨

وستين بقضية رقيقة . إلا أن هابرماس يبدى بصورة مقنعة ، ولأول مرة على الإطلاق ، كما يبدو لي ، أن مؤسسي المدرسة الفرانكفونية مدينان لنيتشه بأكثر من «مجرد استراتيجيّة نقد ايدولوجي موجه ضد الايدولوجيا بالذات» ، إذ أن هوركايمر وأودونو لا ينصفان المثل العقلانية للهذبة الثقافية ، ولكن هذه المثل بالذات هو الذي يريد هابرماس أن يتمسك به . ويعتبر هابرماس اليوم وقوع هوركايمر وأودونو في مفارقة يضربان عليه ، وذلك في المجالات التي أراد المفكرون الآخرون أن يقدموا تعليقات نهائية لها ، بأنها أتت كما قواها في روح المناد وأنها غيّبت مطلب العقل في القدرة على توجيه الحياة ، تماماً كما فطت نظريات سياسة القوة التي طرحها أتباع نيتشه . ومن المحتمل أن يثير هذا الفصل ، الذي اعتبره الحدث الحقيقي في الكتاب ، زوبعة من المعارضة والنفاذ .

إن نقد هابرماس سيّلس بالدرجة الأولى بالخارج الذي يُدّعى بنفسه لحل أزمة الفلسفة . وكما أبدى بصورة مقنعة ، فإن النقد الجذري المتطرف للعقل يفرض نمّاً باهظاً جداً من أجل توديع العصر الحديث . ومن الناحية الأخرى فإن هابرماس يدرك بوضوح أن مسألة إعادة الاعتبار لمفهوم العقل قضية تنطوي على «المجازفة» . إذ لا نستطيع العودة بكل بساطة الى ديكلارت وكانط وهيجل .

ولذا فإن هابرماس يحاول إيجاد هجر خارج نظريته الخاصة بالتصرف الاتصالي التفاهي ، وهي النظرية التي سبق أن شرحها في مؤلفاته الأخرى . فاليشتر مرتبطون في عوالم حياتية يتصرفون داخلها بغرض التفاهي في شبكة من العلاقات والمضامين والرموز الأشارية . وبذلك لا بد من إمكان تحقيق الاتفاق العقلاني ، حتى وإن ظل مثل هذا الواقع معرضاً لخطر بسبب الالتباسات اللغوية .

وهكذا لا تتعدّ ذاتية هيجل المجردة ، وإنما مجال التصرف العقلاني لجميع النوات المنفردة التي يحتاج بعضها الى البعض الآخر ، والتي لا تخفي - كما هو الحال لدى لومان - في أنظمة غير خصيّة . وكما يعلم هابرماس نفسه ، فإن هذه النظرية تبدو مترتبة بعض الشيء . وهي تخطيط مثالي يعتمد على الأمل في ضرورة حصول العقل في هذا العالم على فرصة البقاء والوجود بكل تأكيد .

أما ماذا سيكون عليه التصرف الاتصالي التفاهي في التطبيق العملي بالفعل ، فهذه مسألة تقتضي من المؤلف أيضاً أكثر جلاء في أعماله التالية .

وعلى ذلك سيتوقف مدى مقدرة هابرماس على متابعة خطاب الحداثة وبجانبه خصومه بصورة فعالة .

في العلاقة بين الأدب والعقل

ويكاد يكون موقف كانط Kant مطابقاً لموقف روسو ، ذلك أنه يرى أن الأدب والفن هما دائماً خارج دائرة العقل النظري أو العقل التطبيقي الخاضعين لضروريات وأعداد واضحة . ولذا فإن الأدب حسب رأيه لا يجب بأي حال من الأحوال أن ينتصب مدافعاً عن العقل النظري ولا عن هذا العقل الأدبي الذي يسمّيه **العقل التطبيقي** والذي كان مهيماً على الفكر العلمي خلال القرن الثامن عشر عند بدء الثورة الصناعية . ومن الضروري - لمعالجة هذه المسألة - العودة إلى سقراط وروسو ثم إلى سارتر Sartre وبرتولد برشت B. Brecht خاصة في فترة شيخوخته المعنوية على أفكار جديدة حول مفاهيم ما يمكن أن نسمّيه بالأدب العقلاني وأيضاً حول الاتجاهات الكبرى في الأدب المعاصر . والملاحظة التي يمكن تأكيدها في هذا المجال هي أن القيمة الفنية للأثر الأدبي لا تخضع إطلاقاً للقوانين والأساليب العقلانية . من ذلك أننا نستطيع القول بأن «مذكرات حلزون» لفورتر غراس Günter Grass أكثر عقلانية من روايته «طبلة الضفح» ولكنها ليست أكثر منها قيمة على المستوى الفني . وكذلك الأمر بالنسبة ل «هرمن ودورفي» و «آلم فرتر» لغوته Goethe.

ودون أن نفكر كثيراً نحاول أن نقبل ما أراد أن يؤكد لنا سقراط وهو أن الأدب لا علاقة له بالعقل إلا إذا ما تمّت «نقيضته» و «تصفيته» من كل شائبة لا عقلانية . وهو يقول في كتاب «البولييتيا» في أنه إذا ما كان ملزماً على الشعراء أن يكذبوا فلا بد أن يكذبوا بطريقة جميلة . ولا بد أن يتمتعوا عن إظهار الآفة في صورة بشعة أو فظيعة وأن يكون الجمع في كتاباتهم غير خفيف والأبطال كائنات ملائكية وريفة . ويمثل سقراط رؤيته الإيجابية والمفائلة هذه بأنه إذا ما خالف الشعراء ذلك فإن الكذب يصبح شائعاً بين الناس وإن الانسان ينفصل عن الآفة وأن لأحد يصبح راعياً للموت أو في أن يكون بطلاً ! غير أننا حين نتمعن ملياً في ما قاله سقراط نكتشف أن رؤيته الإيجابية والمفائلة تخفي جهاز رقابة فظيع يحتوي على كل أساليب النع القطاعية

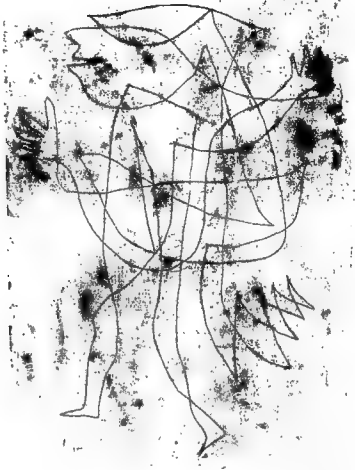
العلم ! النبالة الجاهلية ! التقدم . العالم يسير إلى الأمام ! لا يلوي رأسه على الخلف ؟ » .

(راسبو - فصل في الجمع)

البحث في مسألة العلاقة بين الأدب والعقل موضوع واسع . بل أنه يبدو قديماً وأكاديمياً . ومنذ أمد بعيد خاض فيه المثقفون والفلاسفة ودار جدال طويل حوله . والآن مرّ حوالي ٢٤٠٠ سنة منذ أن تحوّل سقراط إلى أثينا لحضور احتفالات دارت خلالها مناقشات حادة حول مفهوم العدالة . وكمادته غاص سقراط عميقاً في الموضوع وذهب إلى حد طرح مفهوم الدولة العادلة والعناصر المكونة لها . وفي كتاب «البولييتيا» Politeia يتساءل أفلاطون عما إذا كان ممكناً قبول الشعراء والأدباء في هذه الدولة العادلة . وفي المرتين إيجاب بالأسب على هذه المسألة . ذلك أن سقراط Sokrates ومن بعده أفلاطون Platon يمتدنان أن الشعر والأدب لا يمكن أن تأسيس دولة تعتمد على المفاهيم العقلانية ! إذ أنهما لا يلتقيان في شيء مع العقل وتطبيقهما يتعارض مع أسسه وقوانينه . وقد ظلت هذه الفكرة قلقة ومؤثرة إلى حد العصر الكلاسيكية ، أي إلى القرن الثامن عشر . في هذه الفترة كان التنوير الأدبي في أوج قوته ، غير أن روسو Rousseau عاد إلى نبش تلك الأطروحات القديمة والمتشعبة وأعلن بصوت عال أن الأدب هو المسؤول عن انقسام العلاقة بين الطبيعة والعقل وبين السعادة والفضيلة ، هذا الانقسام الذي ازداد استنفالاً بحلول كارثة العصور الحديثة . وما اعتقده سقراط ذو النزعة الأفلاطونية اكتشفنا كثيراً (ذلك أن رفضه للأدب خارج نور العقل ليس سوى طوباوية جديدة) ، بدأ عند روسو تقبلاً وشكلاً من أشكال الحنين إلى الماضي البعيد . ويعتقد روسو أن الانسان المتحضر حين يفقد عقله وذاته يصبح إنساناً ضائعاً وتصبح السعادة صعبة المنال بالنسبة إليه . كما يعتقد أيضاً أن الأب يدفع الفزاة دائماً في اتجاه الأوهام والأكاذيب الاجتماعية ويطوح بهم في عالم لا علاقة له بالعقل إطلاقاً . وبذلك تسيطر قوى أخرى على حياته ويصبح هو مجرد لعبة لا حول له ولا قوة .



مارك تانغالي : الحاضر في الساعة الثالثة والخمسة ، ١٩٩١ .



يأكل الآباء الأبناء أو كأن يضاحج الأبناء الأمهات .
إن مناهضة الأدب باسم العقل متواصلة الى اليوم ولا يمكن
التخفيف من حدتها ، غير أن سقراط رغم حدة معارضته
للأدب يبدو مزدوجاً . ذلك أننا حين نتعمق في أقواله ننتبين
احساسه بالينابيع الوحشية للأدب وبالسحر والشعوذة وبكل
تلك العناصر التي لم تروّض عقلياً وظلت متوجهة في الانارة
الأدبية . كما أن الأدب ظل محافظاً دائماً على جوانبه الواقعية
وعلى رغبته في أن يضع الناس على قدم المساواة ، فهو يجمل
الطبقات والفوارق بين الملوك والمجانين وبين الرجل والمرأة
وبين الأجناس والطبقات . ويمكننا أن نقول أن الأدب وكّد
على الورق قيم المساواة والحرية والإخاء ، تلك القيم التي جعلها
سقراط ومن بعده افلاطون هدفاً للدولة المثالية . إن العقلانية

والكهنوتية والفاشية والشيوعية . وما يعيبه سقراط على
الأدب هو المحاكاة : محاكاة الصواعق والرياح والآلات الموسيقية
وحق نباح الكلاب وأصوات الطيور . وهذه المحاكاة تبدو في
نظر سقراط شبيهة بالتيار الجارف الذي يقطع الانسان من
جنوره ويطوح به بعيداً عن موافقه . كما أنها تدنّز وحدة
الدولة المثالية القائمة على العقل والسعادة والفضيلة . ولهذا
السبب فإن سقراط يرى أن الشعر خيالي وكاذب ويدعو الى التزم
بالضروريات الانسانية ، علاوة على أنه يحاول دائماً مخاطبة
الاحاسيس البائسة والمتوجمة النائمة في أعماق الانسان كما أنه
يدفنا دائماً الى عالم الوم والأحلام ويقوّي رغبتنا في الضحك
والسخرية من كل شيء حتى من أنفسنا . بل أنه في أغلب
الاحيان يجبرنا على قبول حتى تلك الحالات الشاذة كأن

الضروري أن يتوفر الوضوح التام . وأول ما قام به برخت هو تنقية مسرحه - أو بالأحرى برنامجه المسرحي - من فطائع الحكاية . وذلك بأن أخضع كل شيء للتقنية بحيث لم يعد هناك فرق بين الممثل والمؤلف والمخرج . كما أن المشاهدة لا تولد الأحاسيس أو العواطف ولكنها تدفع إلى التفكير والتأمل . إن المسرح في رأي برخت يمكن أن يكون وسيلة ترفية ، ولكن هذه الترفية خاضعة لحركة الفكر حتى ولو كانت هذه الحركة خفيفة وبطيئة . وهكذا حقق برخت ما كانت ترغب في تحقيقه المثالية الافلاطونية ، أي الوحدة بين العقل والسعادة والفضيلة وذلك من خلال الوحدة بين العلم والترفية والمسافة .

حاول برخت انطلاقاً من تقاليد الأدب التنويري الأوربي أن يجعل من الأدب وسيلة تنويرية وبيداغوجيا اجتماعية . ولهذا يمكن اعتباره في هذا المجال ورثاً ثرياً لبيدر و ليسنج . وبإدخاله العلم في المسرح (يستعمل برخت مسرحه مسرح العصر العلمي) أجهد برخت الشاعر نفسه لكي يصعد فوق كرسي التنوير . وأمام الفاشية الهاجمة بشراً وعنف كان عمل برخت هذا شكلاً من أشكال مسؤولية الفن للدفاع عن الحرية والقيم الإنسانية . ولكن نحن هذا الموقف كان غالباً جداً . إذ أن الفن الذي حاول أن يقوم مقام الأحزاب السياسية والتنظيمات النقابية والمؤسسات الاجتماعية والثقافية وأن يلعب دوراً بيداغوجياً كان قد أجبر في كثير من الأحيان على مناصرة مبادئه معوضاً بذلك العلوم الاجتماعية التي كانت غائبة عن ألمانيا في ذلك الحين . وفي كثير من مسرحياته حاول برخت تفسير مفهوم الأزمة الرسالية الدافعة للجمهور البورجوازي وأيضاً تحليل الفاشية تحليلاً مادياً . ولكن محاولاته لجعل مثل هذه المواضيع الغريبة من العلم شاعرية توقفت عند حدود معينة . هناك فرق بين غاليلي الذي يراقب قوانين الأجرام السماوية وبين الكاتب الذي يستخلصها . لكن برخت لا يؤمن بوجود مثل هذا الفارق . وكان يعتقد بأن العلم يمكن أن يتيح للإنسان حياة مطمئنة فوق هذه الأرض . وهو تقدير أظهرت الأيام خطأه إذ أن العلم تحول اليوم إلى غول يخيف يهدد الطبيعة والحياة البشرية على حد سواء . وربما لهذا السبب أقل نجم برخت هذه الأيام وبتناسه الناس في هذا الوقت الذي تشتد فيه مناهضتهم لخطر الحرب النووية وتدمير المحيط الطبيعي .

الافلاطونية لم تحقق هدفها في السيطرة التامة على الحياة وعلى الناس . وهي مثل كل المناهج العقلانية التي أعقبتها فُتت إلى قصص من ذهب لكي تحمي نفسها ولكي تحافظ على وجودها كتهج . وداخل هذه الدائرة - دائرة العقلانية - ليس هناك مكان للشاعر ، هذا الكائن المتنوع والمتعدد والغامض بسحره وحياله الواسع . وهو لا يطرد دوماً تقديس . وقد جاء في البوليتيا أن الإنسان له قدرة فائقة على التكيف والحكاية . وإذا ما أقبل الشاعر يوماً إلى الجمهورية المثالية حاملاً آثاره الفنية فإنه سيُعامل كقديس مبتلاً ومكترماً . ولكنه إذا ما أراد الإقامة فينزع أعلامه بأن لا مكان له فيها وأنه مرفوض منها ، ثم يرسل إلى الجمهورية أخرى ، بعد أن يوضع في شعره الناردن وعلى رأسه تاج من الصفوف !

وبالنسبة لروسو الشيء بدون كيشوت لأنه عاش في عصر غير عصره فإن أدب الناس المتعدد النزعات أوجد بدوره جمهوراً يستمد النزعات . ولهذا كان النقد الذي وجهه للفن في القرن الثامن عشر عنيفاً . بل أنه ذهب إلى حد اتهامه بأنه عنصر تخريب للحياة وتعميق الوعي . وهو نقد شبيه إلى حد كبير بالنقد الذي يوجهه اليوم الشعراء والكاتب إلى الوسائل السمعية والبصرية . أن الأدب في نظر روسو يدفع الإنسان إلى الغوص في الأحاسيس السخيفة وإلى النظر إلى نفسه من خلال الآخرين . وهو يحاول أن يبين كيف أنه يتعارض مع الحياة وكيف أنه يفرغها من محتواها الحقيقي ليحولها بعد ذلك إلى مشهد محيف . وباختصار فإن مستهلك الأدب في نظر روسو كائن فارغ وثاته وبميد عن ذاته وعن المجتمع وعاجز عن الفعل . وهو رمز للبؤس في حياة مستتلبه .

بعد روسو بقرنين وفي فترة بدأ يأفل فيها نجم الأدب الحديث يبرز على المسرح رجل أراد أن يبتكر أدباً خاصاً بأبناء هذا العصر العلمي . إنه برتولد برخت الذي كتب كتاباً صغيراً حول المسرح عنوانه Kleines Organon وذلك سنة ١٩٤٨ ، أي بعد سنة من صدور «جدلية العقل» لأدورنو Adorno وهوركهايمر Horkheimer وكتاب سارتر «ما هو الأدب» . وقد وضع برتولد برخت كل قدرته الفنية في هذا الأثر وكأنه كان يريد أن يكون كلاسيكياً قبل موته . إن الكتابة لا يمكن أن توجد إلا في الشعر . ذلك أن نوم العقل وحده يسمح بظهور مثل هذه الأحاسيس الخفية . أما في المسرح فانه من



سلفادور دالي : رأس رافائيل مشدوخ ، ١٩٥١ .

أفكار الآخرين . إضافة الى كل ذلك كان سارتر يرى أن الأدب اذا ما تحول الى بوق دعائية والى شكل من أشكال الترفيه السطحي والساذج فان المجتمع بأسره سيقسط في الحضيض ويفرق في الوحل .

بعد كل هذا ماذا يمكن القول عن أدب اليوم ؟

اننا نستطيع اذا ما تأملنا الانتاج الأدبي الذي يطالعنا هذه الأيام أن نتمسك رد فعل واع وغير واع لما يمكن أن نسميه بالبورس التنويري يعكس أزمة حالة هي ثمرة التقدم العلمي والتقنية . وقد بدأت هذه الأزمة في الستينات أي عندما بدأ يظهر أدب يمكن أن نسميه بالأدب الأخضر . وهو أدب مناهض لكل نقد عقلاني ويتمحور حول التجربة الذاتية للكاتب أو حول مفاهيم مثل «الاصالة» و «الوطن» و «المرأة» وهو خليط من المواقف الحميمة والانفعالات والدموع والمواجس (أعمال بيتر هاندكه Peter Handke وبوتو شتراوس Botho Strauss على سبيل المثال) .

هل معنى ذلك أنه لم يعد ضرورياً أن نطرح السؤال التالي : ما معنى أن يكون الأدب عقلانياً وما معنى أن يكون لا عقلانياً ؟ ! وهل معنى ذلك أن الأدب قادر من جديد أن يثبت وجوده في الواقع وأن ينتصر على أولئك الذين حاولوا تدويره باسم العلم والتكنولوجيا الحديثة وذهبوا الى حد إعلان موته .

ملاحظة : هذا النص تلخيص لملاحظات أقيمت خلال هذا العام بمناسبة ندوة قدمت فيها مجموعة بحوث حول عدد من المشاكل المتعلقة بالأدب والفن .

ولهذا لا بد من طرح السؤال التالي : «الى أي حد يمكن أن يكون الأدب عقلانياً اذا ما رفض التخلي عن الحداثة ؟ » . غير أن برشت نحاشي بمكر طرح مثل هذا السؤال . أما سارتر في كتابه حول الأدب والصادر في سنة ١٩٤٧ فقد حاول التوفيق بين الالتزام والحريسة وبين الضرورة الجمالية والأخلاقية وبين استقلالية الأدب ودوره في وضع معين . وقد قام سارتر بفصل الشعر عن النثر . فالشعر بالنسبة اليه ينسب الى الفنون المطلقة مثله في ذلك مثل الرسم والموسيقى . أما النثر فهو الفعل المكتوب . ان الكاتب كائن يتحدث ، وهو من خلال ذلك يمكن أن يشتم أو يطالب أو يقنع أو يتوسل أو يقترح . وهذه النظرية التي طرحها سارتر تكاد تنكس تماماً صورته ككاتب . فكأنه يتحدث عن نفسه من خلالها ويهرس موافقه وأفكاره . وهو كواحد من المعالقة الكبار لا يرى ضرورة في أن يكون العقل في خدمة مذهب أو منبج أو نظام . أنه بالنسبة اليه طاقة لا تعرف التعب ودافاً وراء الأسئلة والأفكار الجديدة . وهكذا تمكن سارتر من أن يمرر نفسه من كل العوائق العقلانية التي كبلت المبدعين خلال عتلف العصور . وهو يكتب كأن دافاً يحاول أن يهرب من الاجابات النهائية وأن يكون شيئاً بنهر عظيم يتدفق باستمرار . كأنه لم يرغب في امتلاك ذلك العقل الذي كان يصفه كأنط بأنه وسيلة ناجعة لاستخلاص الحاص من العام . إن التنوير حسب أدورنو وهو كتاير شمولي . وهدفه الأسى هو بلوغ المنهج الذي ينتج عنه كل شيء . غير أن سارتر رفض كل المناهج ونادى بضرورة أن يكون الأدب مفتوحاً أو لا يكون . وربما لهذا السبب ولأسباب أخرى بطبيعة الحال لم يتردد في أن يني نفسه أكثر من مرة وأن ينقد أفكاره بنفس الشدة التي نقد بها

هل تكون الرؤيا مصدراً للأمل ؟

ولقد كان ريم أورويل Orwell السوي ١٩٨٤ تمثيلاً لهذه الرؤيا المتشائمة . ولم يحدث - مثلما هو الحال الآن - أن انتعشت اليوطوبيا والرومانسية المتشائمة ، وفلسفة اليأس ، والتخيلات المفعمة بالأحاسيس الكشبية عن قرب نهاية البشرية . وكل هذا خلق نوعاً من الشعور يشابه سكوف الشمس في نفوس الناس ووعيم .

والآن نكتظ المكتبات الألمانية بمختلف الكتب حول النهاية المرتقبة للبشرية . كما أن أفلاماً مثل «الرؤيا الآن» و«الكارثة» و«المصير النووي» و«العالم الحرب» و«اليوم التالي بعد نشوب الحرب النووية» تشهد إقبالاً جماهيرياً لا مثيل له .

ولا تنطلق التخيلات عن زوال العالم من التفكير في احتمال نشوب حرب نووية لحسب ، بل وأيضاً من التفكير في اشتداد الأزمات الاجتماعية والبيئية وفي الكوارث الحقيقية والخيالية ، وفي الأزمات السياسية والتهديدات العسكرية . وكذلك من التفكير في انقراض الغابات وأنواع من الحيوانات والنباتات ، وفي الانفجار السكاني وفي كوارث المجاعات في العالم الثالث ، وفي البطالة المتزايدة ، وفي تفاهم الأرباح ، وفي اشتداد الرقابة الشاملة للدولة .

في ملاحظاته المأهولة حول زوال العالم كتب هانس ماجنوس إنتسنبرجر Hans Magnus Enzensberger ساخراً من هذه الظاهرة : «إن تخيلاتنا حول سفر الرؤيا أو زوال العالم تصاحبنا باستمرار في حقائبنا الأيديولوجية الصغيرة . إنها شبيهة بميج للشق . وهي موجودة في كل مكان . ولكنها ليست حقيقية . وكأنها حقيقة أخرى أو صورة نحاول رسمها أنهاننا . إنها الانتاج المتواصل لحيلنا . إنها الكارثة في

لوحات بلوغ ال حد سنة ١٩٨٥ ، لكن بلغ من العمر مائة عام . وقد احتلت مدينة لودفيغسهايفن Ludwigshafen التي شيدت مولد الفيلسوف الكبير بهذه المناسبة ، ونظمت معرضاً ضخماً تحت عنوان «الرؤيا : مصدر للأمل» . وجميع مواضيع المعرض استلهمت أساساً من أفكار هذا الفيلسوف الذي يعتبر دون شك واحداً من أعظم فلاسفة عصرنا . وفي مستفاد أساساً من مؤلفاته الرئيسية الثلاثة : «روح الطوبى» ، و«هدى الأمل» و«ميراث عصرنا» . وقد اهتم بلوغ اهتماماً بالغاً بفكرة الرؤيا . وطعن أن فكرة «نهاية العالم» وأفكاراً أخرى تشبه بالمدار التامل وتغافف الناس من نهاية مقبلة الحياة سيطرت في المرحلة الأخيرة على الأدب والفن والفلسفة .

والمرس المذكور أبرز فكرة الرؤيا منذ القرون الوسطى ، مروراً بمصر الإصلاح (رسم الأبرخت دورر) ومن عصر النهضة والعصر الباروكي ، وأخيراً القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ومعلوم أن فن الرؤيا لم يعد ابتداء من عصر النهضة فنّاً ثوراتياً . وكانت أغلب اللوحات تنتمي إلى القرن العشرين . والسبب أن فكرة «الرؤيا» أصبحت أكثر انتشاراً وسيطرة على أذهان البشر بسبب الفواجع التي أتت بها خلال الحربين العالميتين ، وأيضاً بسبب تقاع أخطار اندلاع حرب نووية . وبتة لهذا السبب أصبح هذا الموضوع ، موضوع الرؤيا - يحظى باهتمام كبير لا من جانب الفلاسفة والعلماء والفنانين ، بل وأيضاً باهتمام عامة الناس . وقد كان المعرض أقى هدية مقبلة مدينة لودفيغسهايفن لابناء العظم الذي فهم عصرنا فيها جيداً ، وتبقى في دراسة فواجبه وآلامه .

وفي هذا الصدد نقدم نقلاً لميخائيل شنايدر يتحدث فيه عن فكرة الرؤيا في عصرنا وتأثيرها على الأدب والفن عموماً .

ثمة شبح يحول في أوروبا ويسمى شبح سفر الرؤيا . وهو يتربص بالبشرية ويغني خيالها بالصور الفاجعة عن قرب نهاية ودمار العالم .

وبعد أن كانت هذه التصورات الخيالية حول هذا الشبح تتساقب في أثناء الليل في العهود القديمة ، أصبحت اليوم تشرب إلى نفوسنا في وضوح النهار ، متخذة أشكالاً وصوراً جديدة : نبوءات دينية ، تكهينات وإفترافات علمية ، رؤى فنية ، أساطير مبتذلة أو مجرد خرافات .

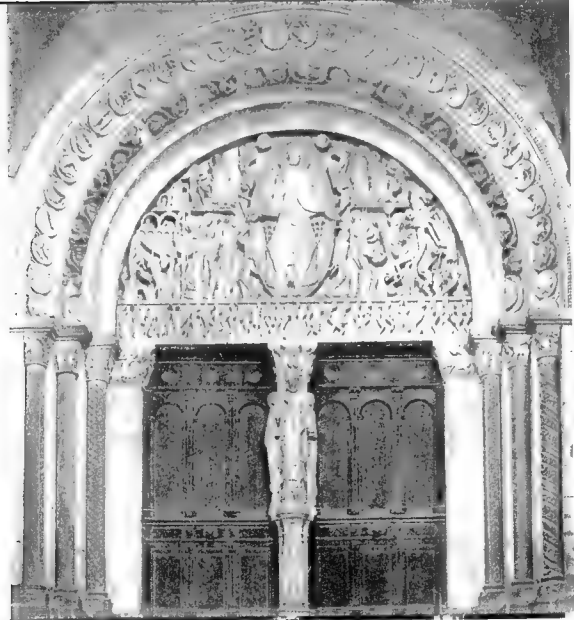
لقد كثر في السنين الأخيرة استعمال كلمة «نهاية» . والكلم يتحدث عن «نهاية التنوير» وعن «نهاية الأدب» وعن «نهاية الحداثة» وعن «نهاية افق الاقتصادي» ، وأخيراً انتشرت الرؤيا الفاجعة عن «نهاية البشرية» .

وكل هذه التخيلات عن زوال العالم ما هي الا يوطوبيا سلبية .

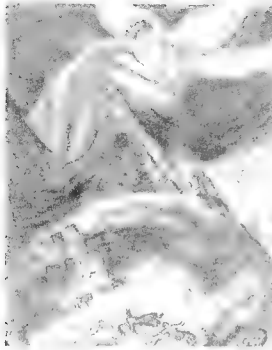
وفي كتابه الحوف من القوضى الذي اكتشفت أهميته أخيراً ، كتب يواخيم شوماخر Joachim Schumacher تلميذ الفيلسوف إرنست بلوخ Ernst Bloch أن الانسان في مختلف العصور ، أراد دائماً أن يُقنع نفسه بأن العصر الذي يعيش فيه ، لا يمثل مرحلة انتقال أو تحوّل يفضي الى عصر جديد ، بل هو

رؤوسا . انها كل ذلك وأكثر من ذلك . انها واحدة من أقدم التخيلات التي لازمت الجنس البشري .

وهذه الظاهرة التي تأتي وتختفي من حين لآخر ، لها تاريخ متقلب ترتبط دائماً ومباشرة بالتغيرات المادية التي لازمت تاريخ البشرية . ذلك أن الأفكار حول نهاية العالم قد رافقت اليوطوبيا دائماً وأبداً وكأنها ظلها أو وجهها الآخر . دون كوارث ليس هناك أبدية . ودون رؤيا ليس هناك فردوس .



يوم الحساب : البوابة الغربية في كاتدرائية أوتون ، ١١٣٠ .



مارك شاغال : نبوة تدمير بابل .

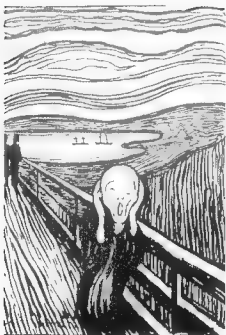


مارك شاغال : نبوة تدمير القدس .

في هذا الفراغ العقائدي والديني ، برزت المسيحية كديانة انسانية ، جاءت لتواصي الانسان بتصوراتها عن الآخرة وعن الخلود ، وأعدت للوعي الانساني في مستهل القرون الوسطى ، السكينة والمهدوء ، وكل ما كانت فقدته بسبب تلك الصراعات التي نشبت بين خلفاء الاسكندر الأكبر قبل ٣٠٠ عام من ميلاد المسيح . ولكن المسيحية - رغم ذلك - لم تشذ عن القاعدة واستشفت هي أيضاً النهاية المرتقبة للبشرية مكن خلال الحروب والحروب الأهلية ، والطاعون الأسود ، وكل تلك الكوارث التي اعتبرتها عقاباً من الله بسبب شرور ارتكبت فوق الأرض .

ولقد سبقت حركة التنوير في أوروبا والثورة العلمية التي رافقتها وتطورت بعدها ، أزمة عميقة في إيمان ووعي الناس . من ذلك أن الحروب الدينية وحرب الثلاثين سنة (١٦١٨ - ١٦٤٨) بغرسانها الجسدية للرؤسا ، والتي دثرت

نهاية المطاف ، بعده لن يبقى أثر للانسان أو العالم . وقد اعتقد الانسان أيضاً أن التناقضات والازمات الاجتماعية والفكرية في عصره ليست سوى عقاباً من الله . ونحن حين نتأمل في تاريخ العالم نكتشف أن ظاهرة الخوف من الزوال والفناء لازمت البشرية منذ ظهور أول مخطوط . وتكاد كل أساطير سفر التكوين بغض النظر عن منبعها الديني أو الثقافي تتضمن في أعماقها إنكار واضح لذاتها . وكل التخيلات الفنتازية عبر التاريخ مهما اختلفت أشكالها والأقنعة التي غختي وراها كانت دائماً تحمل تعبيراً عن تفتيرات اجتماعية حاسمة ، راهنة أو مستقبلية . وقد خلقت هذه التفتيرات التاريخية شعوراً بالخوف من المجهول ، وساعدت على بروز التخيلات بقرب زوال العالم . وقبل أن يحل الرومانيون الامبراطورية الاغريقية ، تصور الاغريق أن انهيار عقيدة تعدد الآلهة في العصور القديمة ليس سوى النهاية الشاملة للعالم . وكان العصر الذي أعقب العصر الاغريقي ، مفعماً بالخوف من الموت وبشعور من الدمار والتشاؤم العميق .



إدوارد مونك : الحزن ،
المرحلة



بابلو كاديستيكي : البيت الكبير .

وقد انجر عن هذا الفشل الذريع تفافم الشعور باليأس لدى الإنسان المعاصر واشتداد تلهفه للخلاص من الحضارة بصفة عامة ! وقد عمد الكثير من المنبئين بزوال العالم لإرجاع التهديدات المختلفة التي تواجه الإنسان ، لا الى حقائق واقعية وموضوعية ، مثل الاضطرابات السياسية ، والعسكرية ، والبيئية ، بل الى الانثروبولوجية ، والميتافيزيكلوجيا ، وإلى تجريدات فلسفية أخرى . وهم يرددون أن يثبتوا من خلال ذلك أن الإنسان هو مصدر كل شيء ، وما يواجهه اليوم من رعب شيء متأصل في طبيعته .

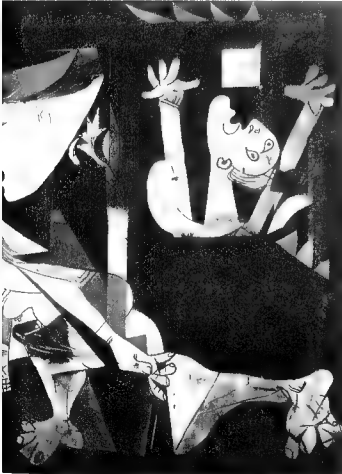
ومثل هذه الأفكار تروجها الآن جماعات تحثي وراء ما يسمى

بالبو بيبكسو : الفريينكا ، ١٩٣٧ .

«الامبراطورية الرومانية المقدسة للام الألمانية» ، اعتبرت إهياراً فاجماً لا للنظام السائد فحسب ، بل وللعالم ككل . وقد أثار اندلاع الثورة البورجوازية في إنجلترا وفرنسا ، وبالأخص لدى الاشراف والقساوسة الملوحيين ، التخيلات الفنتائية . وفي الحقيقة ، يمكن أن نقول بأن كل الطبقات التي حكمت ، لم تترك الركح إلا بعد أن قامت بتلك الحركة العاطفية ، والمثيرة للشفقة ، وكأنها تريد أن تقول أن سقوطها إشارة بنهاية الحضارة الاوربية ، بل وبزوال العالم نهائياً ! وقد كان كتاب أوزوالد شبينجلر **تدهور الحضارة الغربية** نوعاً من التخيل الجماعي للفأر ، إذ أنه يجسد هذه الفنتائية . وباحتصار يمكن أن نقول : ان كل حركة في اتجاه المستقبل ، تعتبر من طرف الطبقة الحاكمة ، دعوة الى القوضى وإلى التدمير التام ! وعند انهيار الرايخ الثالث ، راجت التخيلات الفنتائية . وخلال فترة إعادة بناء ألمانيا وحقى المحسنيات ، سيطر التشاؤم على الناس وداهمت الكوابيس أذهانهم . ويبدو ذلك واضحاً في المؤلفات الأدبية التي صدرت عقب الحرب العالمية الثانية .

أضافة الى ذلك ، تسببت المفاجأة التي المتهيهروناناجازاكي من جراء الفنبلة الذرية في إحداث هلع كبير من احتال فناء البشرية . وتثبتت الحركة المعارضة للتسلح النووي في المحسنيات بأن الفرع الذي أصاب الإنسان بسبب التسلح النووي كان شديداً ، وأن الخوف من اندلاع حرب عالمية ثالثة أصبح ملازماً له في حياته اليومية . وكل تلك المخاوف السوداء التي تناسها الناس أثناء فترة الرخاء والمعجزة الاقتصادية العالمية ، تفاقمت من جديد خاصة بعد أن بلغ التسلح النووي ذروته في السبعينات .

وتوضح احدى الدراسات العلمية التي نشرت مؤخراً أن المخاوف والتصورات الفنتائية المنتشرة الآن انتشاراً مريعاً ، ليست سوى نتيجة مباشرة لفقدان الناس الثقة في القيم السائدة : الدولة ، العدالة الاجتماعية ، التكنولوجيا الخ . وهو ما كان سبباً رئيساً في انقلاب القيم في جميع مجالات الحياة . وبناء على ذلك ، فإن كل التصورات الفنتائية الرائجة اليوم ، يمكن وصفها بأنها أحلام بالخلاص لنقلت فجأة لتصبح يوطوبيا سلبية ، ذلك أن الحضارتين ، المسيحية والشيوعية لم تتمكنا من تحقيق ما وعدتا به الناس من محبة وخير ومساواة وعدالة .

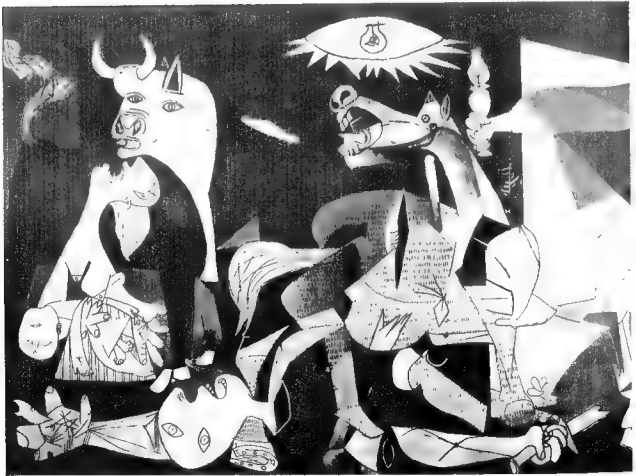


قيل ، حتى نتمكن من مواجهة التهديد النووي . هذا التهديد الذي لا يمكن مقارنة خطره بخطر الانقلابات الاجتماعية والسياسية السابقة ، لا بد أن يحفز همماً ، وأن يقوّي فينا الرغبة في المحافظة على الحياة البشرية . وهناك العديد من الظواهر تشير الى أن هناك تنميراً في الوعي بدأ في العشر سنوات الأخيرة ، وهو شبيه بذلك الذي رافق عصر النهضة . وحده هذا الوعي الجديد يمكن أن يعلن عن ميلاد إنسانية جديدة وفيه في ثناياه يكن «مبدأ الأمل» !

(تلخيص لنص طويل بنفس العنوان) .

بالفلسفة الجديدة . ولقد استعمل جورج لوكاتش Georg Lukács مرة تعبيراً ظريفاً هو : «فندق الهاوية الكبير» . ويبدو أن هذا التعبير يجسد بحق وضعية هؤلاء «الفلاسفة» الجالسين في الصالونات الفخمة يلتذّون بالحديث عن الشرور وعن الضغينة والحقد وإعداد القداسات الجنائزية الصارخة . وهدفهم من خلال ذلك قهر كل البيوطيات الانسانية والاجتماعية ، وإلقاء الانسان في مهمه قفر .

ان التهديدات التي تجابه حضارة عالم اليوم ، تحتم علينا تغيير أساليبنا ومناهجنا الفكرية بصفة جذرية وكألم نفعل ذلك من







تربيتي العلمية

والوجدان . وأذكر أنني حين قرأت «من الأعماق» تأليف أوسكار وايلد أعجبت بسحره . حتى إنني عندما بلغت الصفحة الأخيرة عدت فوراً إلى الصفحة الأولى أقرؤه ثانية كأني أستخدم لحناً جديلاً وأناغماً رائعة . ولكنه لم يترك في رأسي مركبات ذهنية كذلك التي تركها «أصل الأنواع» لداروين . ففقدته غيبي داروين . أما أوسكار وايلد وجون روسكين وكارليل من الكتاب الذاتيين فقد نسيتهم ، لأنهم جميعاً بعيدون أو يصرخون أو يتفحسون . فأجد اللذة العابرة في أسلوبهم ، ولكني أحس أنهم ليسوا مفكرين أساسيين . والمفكر الأساسي عندي هو داروين الذي يستحدث في اعتدال وحذر . وأسلوبه هو الأسلوب الرصين . وأقرب الناس إليّ في هذا الأسلوب هو برنارد شو . وقد سبق أن قلت إن أحسن ما تقبس به الكاتب أن تعرف مقدار ما تركه لنا من المركبات الذهنية ، لأنه على قدر هذه المركبات يكون تفكيره محورياً أو بديرياً ، أي أننا لا نأخذ منه المعرفة الجامدة فقط ، بل نأخذ المعرفة النامية التي تنمو وتتسع في الحلايا الرمادية من الدماغ فتتركنا ونحن نفكر ونشتبك في اشتباكات جديدة لا تفتأ تنبها إلى توسع وتعمق فليانع . ومنذ ١٩٠٨ حين قرأت «أصل الأنواع» وأنا في هذا التوسع والتعمق . فقد درست البيولوجية والجيولوجية ، بل سيكولوجية فرويد ، بمخاف من إجماع داروين . كما أن داروين كان السبيل إلى التعرف إلى هربرت سبنسر . وكان داروين يصفه بأنه «فيلسوف التطور» .

والحق أن سبنسر هو المسئول عن تعميق هذه النظرية ونقلها إلى المجتمع ، ولا عبرة بأنه ارتكب أخطاء كثيرة في التفاصيل ، فإن الأخطاء أحياناً قد تكون مثيرة مثل الاصابات . لأنها تفتح كوة على ناحية لم تكن مفتوحة من قبل . فاذا كان الناظر إليها

لما تركت مصر إلى فرنسا في سنة ١٩٠٧ كان «التطور» من مركباتي الذهنية البارزة ، بل المركب الأول . حتى إنني حين هبطت باريس جمعت طائفة من الكتب التي تتناول هذا الموضوع ، ولكني لم أستطع فهمها وقتئذ ، لأنني أسأت الاختيار فلم أقتن الكتب الإبتدائية أو بالأحرى لم أجدها . فلما قصدت إلى لندن وجدت العشرات من هذه الكتب الإبتدائية . وكانت جمعية «العقلين» تنشرها وتبيعها بأثمان التراب ، بسعر ٢٥ ملية لكل كتاب . فأكببت عليها في دراسة مثيرة ، مع استخراج الخلاصات وكتابة التعليقات . وقرأت كتاب داروين «أصل الأنواع» . وليس في هذا الكتاب شيء يشق على الفهم ، ولكنه يحتاج إلى التأمل الكثير . وداروين بعيد كل البعد عن التعبير المسرحي ، إذ هو متواضع معتدل يكتب في حذر كأنه يخشى أن يؤمن القاريء بكل ما يقول . وهو الضد لنيشه في الأسلوب . فإن نيشه ناوي ساوي ، أما داروين فأرضي طيبي . وأسلوب نيشه عاطفي ذاتي حتى حين يهتدي إلى الحقائق الموضوعية . أما داروين فيكتب عن وجدان وتعقل ، حتى لتحس أنه ينفض عن نفسه عاطفته وذاتيه كما ينفض أحدنا القبار عن شخصه .

وليس شك أن حبي لداروين ، وتحيزي لنظرية التطور ، منذ نشأتي الثقافية ، قد تركا أثرهما في أسلوب الكتابي . فقد قيل إن الأسلوب يدل على الجانب الأخلاقي للؤلف ، بل يكشف عنه . أي يدل على الاتجاه التفكيرية وإيثار بعض القيم على بعض . وأنا أؤثر أسلوب داروين : أسلوب المنطق الصارم ، والحذر ، والاعتدال ، على أي أسلوب آخر يوصف بأنه «أدبي» . وكثيراً ما وصفي الكتاب في مصر بأنني لست «أديباً» لأنهم لا يجدون عندي تلك الزخارف والتزاويق المألوفة في غيري من الكتاب . ومع ذلك فإني لا أنكر سحر الأسلوب الماطفي . ولكني إذا كنت أأخذ السحر أحياناً ، وأستمتع بما فيه من مهارة ، فإني أؤثر عليه أسلوب التعقل

أخطأ الرؤية ، فإن فضله لا يزال عظيمًا لأنه فتح الكوة . وهذا هو ما أراه في كثير من المفكرين مثل فرويد وسبنسر ، بل وداروين نفسه . فقد نهى فرويد في خطته عن «مركب أوديب» كما نهى سبنسر في خطته عن سوء النظام الاشتراكي ، وكذلك نهى داروين في خطته عن تنازع البقاء . وكل هذه الأخطاء كانت كوات جعلتنا نفكر ونبحث ، لأنها فتحت لنا آفاقًا جديدة انتقلنا بها من الميدان البيولوجي إلى ميدانية الاجتماع والدين والاقتصاد .

ومن الكتاب البذريين الأساسيين الذين تأثرت بهم ، وما زالت المركبات الذهنية التي خلقوها في خلاياي الرمادية قائمة بل نامية ، كارل ماركس . فقد وصلت إليه عن استغراض ضده من كتاب «الانفرادية» الذين يقولون بالمباراة الاقتصادية مثل هربرت سبنسر ، وخرجت منه على احترام له واحترار لهربرت سبنسر وأمثاله . ولكن هذا الاحترار ، في هذه النقطة المعينة ، لم ينقص إكباري للقوة التفكيرية عند سبنسر . والحق أنها قوة عظيمة جداً . فاس نظرتة شاملة ، وهو فيلسوف أكثر مما هو عالم . ولكنه فيلسوف بعيد عن الغيبات . وقد احترف هذا الرجل التفكير احتراماً ، حتى ليسألم الإنسان حين يقرؤه ويكاد يسأل : لماذا يلهث ويعرق ؟ . ألا يفكر في إجازة يستريح فيها ؟

والحق أنه لم يفكر في إجازة . وقد أصيب لهذا السبب بانهايار عقلي تألم منه نحو سنين . وحتى بعد ذلك كان أحياناً يطلب من ضيوفه ألا يتكلموا ، بل أن يبقوا في ضيافته أو رفقته صامتين .

وفي هذه السنين كدنا ننسى هربرت سبنسر . ولكن كارل ماركس يزداد بمرور السنين قوة بل حياة . فإن نظرياته تحيا في كل مكان في العالم ، والأزمة العالمية الحاضرة هي أزمة الصراع المنتظر ، أو الوفاق المحتمل ، بين الماركسيين دعاة الإنتاج التعاوني وبين الديمقراطيين دعاة المباشرة الاقتصادية . ولذلك لا يمكن أحداً أن يصف نفسه بأنه متغيب إذا كان يجهل الماركسية ، ولو كان يكرها . لأن الأزمة العالمية هي في صميمها أزمة ماركسية .

وقيمة الماركسية في فهم السياسة العالمية ، والتطورات الاجتماعية والاقتصادية الحاضرة ، كبيرة جداً . ولكن لها قيمة

أخرى في فهم التطورات التاريخية . والمتعمق في دراسة ماركس لا يتألك من الشعور بأنه هو ، لا فرويد ، الأساس الصحيح للفهم السيكلوجي . فإن ماركس أثبت أن العواطف الاجتماعية ، أي التي نكتسبها من المجتمع ، أكبر قيمة وأبعث على التغيير والتطور وأثبت في كياننا عما نسميه العواطف الطبيعية . ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علماً ، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والاجتماع والسيكلوجية علوماً . ولا يستطيع أحد أن يفهم هذه الثلاثة على حقيقتها ، الفهم الموضوعي ، إلا إذا كان ماركسياً .

داروين وماركس ، كلاهما قد غرس في رأسي مركبات ذهنية . وجعلني أنظر إلى الدنيا وإلى الأحياء في استغراض علمي وتحليل اقتصادي وسيكلوجي .

وعندما استنبطن إحساسي الديني أجد أن بؤرة هذا الاحساس هو «التطور» . وهذا الاحساس الديني هو فهم وممارسة . فإني أفهم أننا جميع الأحياء أسرة واحدة بما في ذلك النبات ، وأن الخلية الأولى التي نبض بها طين السواحل قبل نحو ٧٠٠ مليون سنة هي عنصرنا الأول . وأننا ما زلنا ننبض ونبتغى في تجارب لا تنتقطع ، وأن سنتنا هي لذلك سنة التغير ، وجرمتنا هي لذلك جرمة المجرود . ونحن حين نجهد إما نكفر بسنة الكون مادة وحياة ، ولكن إلى جنب هذا الفهم الديني يجب أن «نغرس» ممارسة دينية احترام الحياة أياً كانت ، والتعرف على أشكالها ، وحمايتها من الأيمن المستترين بالطبيعة . هذه الطبيعة التي نكتسب في ذهني قداسة كلما فكرت في غابات إفريقيا أو الهند وما تحوي من تحف الحياة . أو كلما فكرت في غياهب المحيط الهادي أو الأطلنطي أو الأطلسيين القطبيين وما بهما من أحياء يحاول التجاريون ، في غير شرف ، أن يبيدوها بالإلحاح عليها في الصيد .

وكذلك لا أقرأ الجريدة اليومية ، ولا أسمع عن خبر سياسي أو مشروع لقانون جديد ، إلا وأنظر إليه بالاستغراض الماركسي من حيث دلالاته على التوازن الخفية التي دفعت إليه . في حين أن الذي يجهل الماركسية يتطوّر ويتخطى في تقديرات «مخفية» للمثنيين السياسيين أو الحريين . مع أن هؤلاء ليسوا سوى أدوات تأخذ مكانها في دورة الآلة الكبرى ، في حركة

يمجده الثاني الذي يحسب أن الحوادث النافية والمخطئة ،
والاتجاهات السياسية ، والتطور والثورة ، والحب والسلام ،
كلها أشياء تجري جزافاً .

ويأتي فرويد ، بعد داروين وماركس ، في إيجاد المركبات
الذهنية التي علت في توسي وتعمقي . وعندني أن «مركب
أوديب» الذي يمد محور السيكولوجية الفرويدية هو خطأ ،
ولكنه خطأ منير . لأنه نبأ ، كأنه دسيسة علمية نحر كنا الى
البحث والتفتيح في كهوف النفس المظلمة ، الى قيمة السنين
الأولى من أيام الطفولة في تكوين الشخصية . وقد وصفت
أقوال فرويد بحق بأنها «سيكولوجية الأعماق» . وهي كذلك ،
وإن كنا نختلف كثيراً عما نجد في هذه الأعماق . ولولا فرويد لما
كان هذا الجيش الذي يتألف من آلاف العلميين الذين يبحثون
النفس البشرية في جميع الأقطار المتعددة . وقد جمعت بين
فرويد وماركس وخرجت منها بأزكى الثمرات . بل فطنت
الى ان ماركس هو السيكولوجي الأساسي لأنه يجعل ويجدان
الفرد ثمرة المجتمع .

وعبارة «التحليل النفسي» من العبارات التي تُعزى الى
فرويد . وهي «اللافتة» لجميع أنواع العلاج السيكولوجي .
وليس ثمة شك في قيمة التحليل . ولكي أحس أن «التأليف
النفسي» أم وأنفع من التحليل ، وأنه إلى الآن مهمل لأن
السيكولوجيين مقيدون بفرويد .

وفي حياتنا المصرية لا يستطيع أحد أن يهمل التفكير العلمي
لأن الحضارة الصناعية السائدة هي حضارة العلم . وقد دأبت
في دراسة العلوم التي تدور حول التطور أو الاقتصاد أو
السيكولوجية أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، ولذلك أستطيع
أن أتناول كتاباً عن الهرمونات ، أي مفرزات الغدد الصماء ، أو
كتاباً عن الايكولوجية ، أي علاقة الحي بالبيئة ، أو كتاباً عن
مشكلات الوراثة ، أو كتاباً عن جنون الشيزوفرنيا ، فأقرؤها
جميعاً في رغبة ولا أجد ذلك الصدود الذي يمجده غيري من لم
يعنوا بالعلوم .

وكل هذه العلوم هي دراسية المستقلة ، لأن ما حضرته من
محاضرات في لندن لا يؤبه به . وما أسف عليه أحياناً أني لم
أجد المرشد ، حوالي ١٩٠٧ ، الذي كان يستطيع أن يعين لي
منهجاً دراسياً في العلوم . ولكني ، بعد التفكير ، أسائل : هل



ميكيل الجلو : لوراند سيديني ، الفكر .
(كنيسة صرح عائلة الديدني في فلورنس) .

المجتمع الاقتصادي . ولذلك أيضاً أصبحت فكرة «البطل» في
التاريخ من الأفكار التي كانت تنفهر في وجداني كلما
تقدمت في التحليل الاقتصادي . ولكن يجب أن أعترف أنها
مع تفهقها لم تمنح ، وأنه لا يزال للشخصية قيمتها في تمكيري .

وفرق عظيم ، بل عظيم جداً ، بين شخص قد قرأ ماركس
ودرس التفسير الاقتصادي للتاريخ ، وبين آخر يجهله . لأن
الأول ، الذي امتاز وجدانه بالحاسة التاريخية التي اكتسبها من
ماركس يجد في أخبار الجريدة اليومية من المعنى والمغزى ما لا



موديلاني : رأس ١٩١٢/١٩١١ ، لندن .

كان يكون أفضل لي لو أني كنت قد انغمست في دراسة علمية تجريبية معينة ؟

إن المتخصصة في الميولوجية أو البيولوجية أو الايكولوجية قلما يفكر في دراسة أفلاطون أو قراءة الجاحظ أو دراسة الحضارة الفرعونية . ولكني أنا بالاتجاه الموسوعي الذي اتجهته قد درست هذه العلوم ، في غير تخصص ، ولكن مع الإستطلاع الدائم لغيرها من الثقافة ، حتى أني أقدر ، مثلاً ، عدد المؤلفات التي قرأتها عن حضارة الفراعنة بما لا يقل عن أربعين أو خمسين كتاباً . ولم أترك كلمة مطبوعة للجاحظ لم أقرأها . وكذلك أستطيع أن أؤلف كتاباً عن غوته أو عن الإصلاح الزراعي في مصر أو المسألة الهندية باليسر غناه . ولذلك يرى القارئ ، أني درست ، لا للثقافة ، بل للحياة . وقد جعلني دراسي العملية على أن ألقت كثيراً الى المراحل البعيدة التي قطعها العلوم المادية ، كالطب والهندسة والكيمياء والميكانيك والطبيعات ، مع تأخر العلوم الاجتماعية ، التي حال دون التفكير الحر فيها وتغيير قواعدها تقاليد وشعار وسن وقوانين تعمل كلها لتجميد تطورنا الاجتماعي . فالاجتماع ، باعتباره علماً ، يعيش على مستوى التفكير في ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ ميلادية . بل هو في أقطار آسيا وأفريقيا يعيش على مستوى سنة ١٠٠٠ للميلاد . في حين أن الكيمياء أو الطب يسبقانه بنحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة . ولذلك نحن لا نعيش المعيشة العلمية في بيوتنا ، ولا يسود حكومتنا النظام العلمي . ولو أنه كانت هناك تقاليد وشعار وسن وقوانين للكيمياء مثلاً ، كاللجمتع ، لبقى هذا العلم على مستواه حين كان كل هم الكيلوي أن يحيل الرصاص الى ذهب . كما أننا لو استطعنا التخلص من تقاليدنا ، ومن الاستغراضات التي نخدم بعض الهيئات والطبقات ، لكان في مقدورنا أن نرتفع بالاجتماع الى مستوى العلوم التجريبية المادية .

ولهذا أيضاً نجد أن الطالب الذي يدرس الطب تقول له في صراحة إن الذباب ينقل عدوى الرمد أو البوسطناريا ، أو أن لحم البقر الذي أصيب بالدرن تنتقل عدواه الى آكله من البشر ، ولكننا لا نقول هؤلاء التلاميذ أو الطلبة إن الأجور

المنخفضة التي يحصل عليها العمال في مصر تقضي بينهم الجرب والعلمى والموت . لأننا نخشى هنا الاستغراضات الامتيازية والاحتكارية والاقتصادية . ونخشى أن نصرح للفلاحين بأن

كثيراً من الغيبيات التي يؤمنون بها خرافية . ذات يوم في ١٩١٨ كتبت قاعداً في الريف الى قناة صغيرة في ظل شجرة وإلى جنبي فلاح قد بلغ الثمانين ، وكنت أتأمل يركات الضفادع وهي تسبح . فسألت الشيخ عنها فأتضح لي أنه لا يعرف أنها ضفادع صغيرة . ثم تشعب الحديث الى النبات فقال : «إن لكل نبتة من هذه الأعشاب التي تنمو على شواطئ القنوات ملكاً يحرسها» . ولما نهضت أخذت أفكر في هذه الرواسب الثقافية التي انحدرت اليها عن الفراعنة والكلدانيين والبابليين ، وجعلتنا نعيش في غيبيات تحملنا على النظر الخطيء لحقائق هذا العالم وتبادل بيننا وبين النظر العلمي الموضوعي . وقلت في نفسي : هذا الرجل غيبي ، يؤمن بأن العالم حافل بالأرواح التي تحرس الناس والحيوان والنبات . إذن هو من خصوم داروين .

ولكن هذا الفلاح المسمى يثل في سذاجته المركزة جهل الرجل العادي والمرأة العادية . وكلاهما يعيش بذهنه على رواسب قديمة من العقائد . وحتى إن فكرة «القرينة» عند الفراعنة ، لا تزال حية في أيامنا . أجل ! لقد ذكرت الآن . فقد كنت طفلاً لم أتجاوز السابعة أو السادسة . وكنت قد غضبت وصرخت ورفست ، وأنا في المشاء . فقالت لي أمي تخيفني : «دلو وقت أختك تزعل منك وتضربك» .

وكانت تعني بأختي هذه «قرينة» الفراعنة . وقصدت الى الفرائض وتمت بلا عشاء . وإذاني أحلم أن فتاة قد حضرت وهي تحمل سوطاً ، ترفعه في الهواء كي تتحفز لضربي ، فصرخت في التوهم . وأقبلت إلي أمي في فرح فأيقظتني ، وحضنتني ، وجاءتني بكوب من الماء شربت منه جرعة . ثم أخبرتها عن الحلم ، فأخذت تقبلي وهي تبكي : «حقك علي يا ابني . أنا كنت بضحك . مفيش أخت . مفيش أخت» .

ولكن مجتمعنا لا يزال في أسر هذه القرينة أو ما يشابهها من العقائد التي تتخذ أحياناً أسلوب البحث العلمي . كما نرى مثلاً في أولئك الذين يزعمون أنهم يستجلبون الأرواح فتتفرق على المائدة وتحدث عن العالم الثاني . وهذه العقائد تعيش كأنها كابوس للمجتمع ، تعمل على تجميده وتخويفه حتى لا يتطور . ودعاة الروح هؤلاء لا يختلفون عن تلك الأم الساذجة التي تقول عند يعثر طفلها : «وقعت على أختك

أحسن منك» تدح الأخت وتسترضها حتى لا تصيب طفلها بأذى .

وهذه القرينة ، أو هذه الأخت التي أفرعتني في نوبي ، وهذه الملائكة التي تحرس النباتات عند ذلك الفلاح المسن ، هي ضباب العقل الذي كان يجب أن يقشعه العلم . وقد انتشع أو كاد في أمريكا وأوروبا . ولكنه لا يزال يحجم علينا ، لأن الثقافة العلمية لا تزال بعيدة عنا لم تنفص هواءها الصافي .

وهذه الثقافة العلمية هي ما أفتأ أن أرجو أن أجعلها أسلوبني في الحياة الشخصية والاجتماعية . ولكني لم أخطئ قط ذلك الخطأ المألوف بأن أجعل العلم غاية ، إذ هو وسيلة فقط . أما الغاية فيصيرها الأدب والفن والفلسفة ، أي كيف نعيش في مجتمعنا أصلح العيش وأروحه وأقصده وأشرفه .

وقد وضعت كتابي «نظرية التطور وأصل الإنسان» ولي مأرب هو مكافئة الغيبيات الشائنة ، ونشرت كله مقالات في «البلاغ» قبل طبعه كتاباً ، كي أصل الى أكبر عدد من القراء . ومن الذكريات السعيدة أني وقفت ذات يوم الى دكان صغير لا تزيد مساحته على ثلاثة أمتار مربعة اشتري لبني بعض الحلوى ، ففرغني البائع وأخبرني أنه قرأ كتابي هذا وفهمه .

ولو أني وجدت التشجيع لأرصد تحياني لإخراج كتب شعبية مثل «نظرية التطور» و «أسرار النفس» ، ونحوها وكثيراً ما كنت أتمحسر حين كنت أرى مؤلفات العقليين في لندن . فإن كتاب «أصل الأنواع» الذي زلزل به داروين الثقافة الأوروبية كان يباع بأقل من خمسة وعشرين ملياً .

وحوالي ١٩٣٠ وجدت أنا والأستاذ صروف الفرصة سانحة لإيجاد حركة علمية شعبية في مصر . ففقدنا العزم على تأليف «المجمع المصري للثقافة العلمية» . وكانت الغاية منه أن يضم جميع المهتمين بالثقافة العلمية ونشرها بين الجمهور . ونجحنا في المشروع نجاحاً لم تكن ننظره ، مما دل على أن المجمع أدى حاجة عضوية فيسيولوجية في مجتمعنا . عقدنا الاجتماع السنوي الأول له وألقيت فيه محاضرة سيكلوجية عن طبيعة التفكير في ضوء الأحلام في قاعة الجمعية الجغرافية . ولكني في ذلك الوقت كنت أمارس نشاطاً سياسياً مركزاً في مكافئة اسامعيل صدقي (باشا) حين ألغى الدستور واستبدل به غيره ،

وانفق مع المستعمرين والمستبدين على إعادة الحكم التركي التركي الذي حاول عرايي أن يحطمه . وأدى نشاطي هذا في السياسة الى طردني من المجمع .

وكان من حظنا السيء أننا اخترنا معظم الأعضاء الموظفين . ولذلك حين اختير حين سري (باشا) رئيساً لاجتماعه الثاني أرسل الي خطاباً يفصلني من المجمع «مع الشكر» . وكان وقتئذ وكيلاً لاحدى الوزارات ، فوافق جميع الأعضاء «الموظفين» ولم يشذ غير واحد ، غير موظف ، هو الأستاذ اساعيل مظهر . وجاء في عقب طردي الصديق زكي أبو شادي يعتذر الي بأنه لم يجرؤ على مخالفة «وكيل الوزارة» ولذلك أعطى صوته ضدي ووافق على طردي ، على أنه يعرف أنه ليس من حق المجمع أن يفصلني لنشاطي السياسي .

واتجه المجمع بعد ذلك وجهة اختصاصية غير شعبية ، ولذلك لم يتفجع به الجمهور كثيراً . وعندما أثارن بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية أجد أن القيمة العظمى للأولى أنها تحريرية . لأن التفكير العلمي يسير على نهج ارتقائي : هذا سيء فيجب أن نبحث عن الحسن ، وهذا أحسن ولكن يجب أن ننشد أحسن منه بالإكتشاف والإختراع . والتفكير الارتقائي هو بطبيعته تفكير علمي . وهو لم يشأ في أوربا إلا بعد أن اتجه الأوروبيون وجهة علمية في القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فلم يكن هناك من يقول بأن الشعوب يجب أن ترتقي وتتغير . وقد رد هنا علي بأنه كان هناك طوبويون يتخيلون حالاً سعيدة للبشر غير حالمهم الحاضرة ، ولكن الفكرة الارتقائية لم تنبت قط في هذه التربة الطوبوية ، وإنما نبتت من البذور العلمية .

ديدرو مع الموسوعيين .



الانتاج الفكري العربي منذ عشرين سنة

الخليج . . الخ . وبصفة أم إسهام المغرب العربي في الانتاج الفكري أكثر من ذي قبل وبأكثر منهجية .

وما يلحظه المرء طوال هذه الفترة هو : (١) من جهة تضخم الانتاج كياً ، ولولوج أبواب كانت مغلقة في السابق ، نشاط حركة الترجمة ، نشاط حركة النشر وتتركزها ببيروت ، بروز معاهد فكرية - ثقافية تلعب دور همزة الوصل بين المتفكرين العرب وتحاول استعمال جزء ضئيل من الربح البتسرولي .

(٢) ومن جهة ثانية : سيطرة العامل السياسي الآتي على الأفق العربي بدرجة لم يكن لها مثيل في السابق - نحو وتطور وهيمنة وسائل الاعلام - انخفاض قدسية الفكر والبحث العميق وتدهور المطمح العلمي ، بحيث صار الكتاب في بعض الأحيان نتاجاً مبتذلاً عادياً ، وهذا من ما يفسر تكرار عدة الكتب وقلة ما يرجى البقاء منها أو يترجم من مجهود طويل النفس .

دالماً على الصعيد الفكري ، نلاحظ انفتاحاً كبيراً في الوسط الثقافي على التيارات الفكرية الخارجية وذلك تبعاً لطاهرتين : - تكاثر المحررين من الجامعات الأجنبية : أمريكية - سوفياتية . . الخ . وتكتيف العلوم الانسانية على القطر الحديث داخل البلاد العربية وفي الجامعات العربية بالذات .

- تضخم حركة الترجمة ، والصفة العشوائية التجارية الرخيصة التي كثيراً ما تتسم بها هذه الترجمة .

وهذه التيارات لا يمكن حصرها ، على أن التيارات التي أثرت في العشرين سنة الأخيرة هي : الماركسية ، العلوم السياسية وفقاً للنمط الامريكي ، البنوية والسبائية وهذا تأثير فرنسي باريسي .

نعت رجل الفكر العربي منذ عشرين سنة :

بيناً كئيباً إلى حدود المحسنيات رجال ثقافة وفكر من غط الشخصية الكبيرة ذات التأثير الواسع على الجماهير والنخب

هشام جعيط من المتكبرين العرب في المغرب العربي . ولد في تونس العاصمة في ديسمبر/كانون الأول ١٩٣٥ . درس في جامعة الزيتونة وفي المدرسة الصادقية ، بعد ذلك انتقل إلى باريس حيث درس في دار المعلمين العليا وفي جامعة السوربون وبعد تخرجه درس في جامعة باريس وفي حاشية تونس . اهم في كتبه وفي الدراسات التي نشرها باشكالية اللغاة بير العرب والشرق وكيف يرى الأوروبيون الاسلام . من أهم كتبه المصير العربي ، دار الساي ، باريس ١٩٧٠ ودار الطليعة - بيروت - ١٩٨٣ .

لقد سبق أن وقع مسح للانتاج العربي وتقييم له من طرف هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت ، لكن هذا المسح يقف في أوائل الستينات ، ذلك أن مجلد «الفكر العربي في مائة سنة» قد برز في منتصف الستينات . ولهذا سنحاول التعرف عما جدد من جديد في نتاجات الفكر العربي منذ تلك الفترة . وسنبداً أولاً بملاحظات عامة ، ثم نستعرض قطاعات الانتاج من تاريخ واقتصاد . الخ ، وأخيراً نقيم هذا الانتاج ونعرض حلولاً وقتية .

١ - ملاحظات عامة

إن الجو العام الذي أثر في هذه الفترة على الانتاج الفكري العربي بدءاً من الستينات هو جو سيطرت عليه عدة ظواهر مترامنة أو متتالية : استقلال بلدان المغرب العربي وبلاد عربية أخرى ، حرب حزيران والنكسة التي صاحبها ، وفيما بين ١٩٦٣ و ١٩٧٣ تقريباً ، النمو الاقتصادي الضخم للعالم الغربي وسيطرة الاقتصاد المالي على الوطن العربي ، حرب ١٩٧٣ وتغير الأجواء الاقتصادية لقائدة العرب ، وتبقى المشكلة الفلسطينية مطروحة على الصير العربي طوال هذه المدة . ونلاحظ أيضاً أنه لم يقع أي تقدم محسوس في بناء الوحدة العربية ، وأن النظم القائمة في الأقطار العربية دكت على تماسكها ودهونها .

على الصعيد الفكري ، وداخل الساحة العربية ، ما يجلب اهتمامنا هو بروز عديد من الجامعات الفتية في البلاد العربية ، في تونس والجزائر والمغرب وليبيا والسعودية وبلدان

(حله حسين ، العقاد .) ، فإن ما نَجده الآن هو وسط فكري فقط تلتقي فيه عدة رواقد ويلبس دوراً على الساحة العربية ، لكن هذا الدور مهتس من طرف الساسة والجماهير . هذا الوسط الفكري يتركب من أربعين أو خمسين شخصاً لهم اهتمامات تتجاوز الحدود النظرية ، وتتجاوز العمل الأكاديمي البحت ، ويحاولون - انطلاقاً من اختصاص معين أو تجربة معينة - التفكير في مجمل المشاكل العربية . أما الأكاديمي المعادي أي الأستاذ الجامعي الذي لا ينصرف إلا لاختصاصه ، فالمفروض أنه شخص موجود بكثرة ، لكن يبدو أنه لا يثابر على البحث المتخصص ، ولذا فهو لا يظهر بمظهر العالم المحقق لكن يظهر المدرّس الصغير . وهنا نصل الى نقطة استفهام ولهم : فالوعي العربي لا يحسن التمييز الصارم المضبوط بين العالم المحقق في أحد ميادين العلوم الانسانية والاجتماعية ، وبين المفكر الحقيقي صاحب النظرة الشمولية المتجاوزة للاختصاصات ، والذي يأتي برؤية وبمفاهيم مع عمق في النظر واستقلالية في منابع التفكير . ليس كل من يفكر مفكراً ، وليس كل مختص عالماً ، وحقيقة الأمر تتلخص إذن في هذه النقاط :

- إن وجد وسط فكري نشط ، فلا يعني أن نخفي في الوطن العربي أربعين أو خمسين مفكراً ذوي مستوى مرتفع . إن وجدت عديد من الجامعات ، فإن عدد الباحثين المختصين والمثابرين طول حياتهم على تعميق معرفتهم العلمية قليل . - يجب إذن أن نتحاشى الخلط بين المفكر المبدع والباحث المختص من جهة ، وبين هذين الصنفين وأصناف أخرى من أمثال الخبير والصحافي والسياسي المهني ورجل الثقافة من جهة أخرى . إن هذا الإيهام ينعكس على تقسيم مادة البحث المطلوب منا . فهناك ما يدخل تحت تسمية «الفكر» أو «الأيديولوجيا» ، وهناك ما يدخل فقط تحت تسمية علوم اجتماعية وإنسانية» ، ولم يقع التمييز بعد بصفة واضحة .

٢ - الانتاج «الفكري»

(أ) مجال التفكير القومي

في هذا المجال ، يبرز بصفة أوضح ، ما هو مجال التفكير وما هو مجال التحليل . وليس ما كتبه ميشيل عفلق وإلياس فرح والرزاز وغيرهم في إعادة صيغة الفكرة القومية عائلاً لما كتبه السيد ياسين (تحليل مضمون الفكر القومي العربي ، بيروت ١٩٨٠) ومادلين نصر وسعد الدين إبراهيم وهي دراسات استطلاعية وسوسولوجية . الصنف الأول يدخل في مضمون

التفكير القومي وهو تيار فكري - أيديولوجي ، والآخرون يدخل في بوتقة العلوم الاجتماعية ذات الطابع الأكاديمي . والذي نلاحظه في هذا الطور الأخير من تاريخ الفكر القومي هو أنه لم تبرز خصائص نظرية من طراز الكواكبي ثم المصري أو عفلق . ولعل ذلك قد يوعز الى كون القوميين استولوا على الحكم في كل من سوريا والعراق ، وأن التفكير عند هنا كשב الأمر الرسمي وحسب الدعائي . ومن الناحية الكمية ، تكن المفارقة في التناقض بين الانبيات الكبير للعواطف القومية في الجماهير العربية ولو بصفة غامضة ، وبين قلة التراكيب الفكرية والنتاج القومي البحت . فبينما تتعدد أسماء كل من خاض في الأيديولوجيات الرخيصة للثورة والقومية والنضال الفلسطيني وما ينسب الى التفكير السياسي - الاقتصادي بخصوص الاميرالية وغير ذلك من الأغراض . وقد تمت هذه الأسماء بالآلاف وحسب الألوف ، فإن الأسماء الجديدة التي حاولت تعميق التراث الفكري القومي تمتد على الأصابع . ولندكر منها : إلياس فرح ، وسعدون حمادي وشبلي البسمي ومحمد عمار ، ونديم البيطار ، والرزاز . ولندكر أيضاً الخزيين العاشر والحادي عشر من نضال البعث . وأغلب هؤلاء المفكرين من رجال السياسة والعمل الحزبي .

نجد في هذه الكتابات تراجعاً في البناء النظري لقضية القومية العربية إذ لم تعد هذه القضية دعوة كما كانت سابقاً ، وتركز الاهتمام على العمل السياسي ، لكننا نجد أيضاً إغفال العامل الاسلاي (محمد عمار) والعامل الحضاري (إ. فرح) في التفكير القومي .

وعلى الرغم من هذا ، يبقى هذا التفكير ضحلاً ونافضاً وعقائدياً وبعيداً عن مشاكل الحداثة والتنمية . هو ما زال أسير الشعارات النضالية من مثل ثورة وجماهير ، وكثيراً ما يتكلم لغة الحرب ، لالة المنطق (أنظر نقد العروبي لكتاب البيطار عن الأيديولوجيا في كتابه الأخير «الألدوجة») . وهو تفكير أحادي له منطلق معين وبعيد أكثر فأكثر عن مفاهيم الفرد والتاريخ والفن والمجتمع (هناك محاولات عند الرزاز وإ. فرح) . وما يدل على أن فكرة القومية كما تمارس الآن لا تخلق تنظيراً عميقاً إنسانياً مقبولاً من الضمير العالمي أو من النخبة العربية ، أن «مركز دراسات الوحدة العربية» ينشر دراسات ميدانية ودراسات اقتصادية ، ولا يكاد ينشر شيئاً في المجال النظري .



... ١٩٣٣

بول كلي : رأسان ، ١٩٣٣ .

ب) مجال التفكير الفلسفي

(١) لا بد أن نعترف بأن العالم العربي ، بعد أكثر من قرن من ظهور حركة النهضة ، لم يبرز ولا حتى فيلسوفاً واحداً من طراز متوسط سواء من كتب بالعربية أو بلغة أجنبية . ولذا لا بد من الاعتراف بأن التقليد الفلسفي العربي الاسلامي مات خلال عصور الاضطهاد ولم يخلف شيئاً . وأعجب من هذا أنه لم يتلمذ أحد من الأجيال السابقة (جيل العشرينات والثلاثينات) على أحد كبار فلاسفة الغرب وهم على قيد الحياة وقسائين بالتدريس ، من أمثال Bergson ، Husserl ، و Heidegger .

المسلم - غير العربي - الوحيد الذي نهل الفلسفة الأوروبية من أصولها واستعمل مناهجها لإعادة التفكير في الجهاز ، الاسلامي ، هو محمد إقبال . ومع هذا لم يكن إقبال بالفيلسوف الكلاسيكي

أي صاحب النسق الفلسفي ولم يدع هذا قط ، لكن كانت له مقدرة على أن يصوغ الأفكار في سياق فلسفي أصيل .

(٢) بقي على العرب أن يبحثوا في تاريخ فلسفتهم الخاصة ، وهذا لم يقع بصفة جدية قبل الستينات .

وبعد الستينات ، نلاحظ بروز عدد من الكتب ذات القيمة حول التراث الفلسفي منها :

- كتاب محسن مهدي حول فلسفة ابن خلدون السياسية .
- كتاب ناصيف نصار حول فلسفة ابن خلدون واسمه «الفكر الواقعي عند ابن خلدون» .

- كتاب محمد اركون حول فلسفة ابن مسكويه .

وتتقننا الآن دراسات جدية للتراث الميتافيزيقي العربي الاسلامي (ابن سينا ، ابن رشد) . وحول نشأة وتطور الفلسفة

عند العرب . وهنا لابد من ذكر كتاب طيب التيزيني «مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط» ، (دمشق ١٩٧١) هذا الكتاب يتم عن مقدرة صاحبه الفلسفة الجيدة ، لكنه يبرز أيضاً ما يمكن أن نسميه بجاهض مشروع لتاريخ الفلسفة ، ذلك أن صاحبه يتيه في فلك الماركسية المتبذلة التي يريد أن يفسر على ضوئها كل شيء ، ويفسر كذلك هويته أكثر من هذا في مقدمة التاريخ العامة والاسلامية التي شوهت الكتاب تماماً .

وهذا القول ينطبق أيضاً - ولو بدرجة أقل بكثير - على تطور محمد أركون وناصيف نصار . كلاهما أقم نفسه في فلسفة الدين وفي الفكر العربي العالم لترويج نظرية ايديولوجية .

أما كتابات الجابري (مثلاً نحن والتراث) فمستواها جيد ولكن تغلب عليها الايديولوجيا الباريسية أي فكرة القطيعة الاستمولوجية .

كل هؤلاء المفكرين اغازوا من تاريخ الفلسفة الى فلسفة الثقافة ، أي أنهم دخلوا في صراعات الضمير العربي حول تأويل التراث والدين وإشكالية الشرق والغرب ، وكل هذا يؤسس لبّ التفكير الفلسفي العربي .

٣) أقول إذن بوجود فكر فلسفي - ايديولوجي عربي له خصوصيته في كونه يتمحور حول مشاكل ذاتية تتردد بكثرة . هذا النسيج من الاشكاليات السياسية - الحضارية - الثقافية يمثل إسهاماً مهماً ، لكن بقي عليه أن يتجاوز الأفق العربي - الاسلامي وأن يدخل نطاق التنظير العام . هذه الاشكاليات نجدها في صلب المجتمع . في خطاب السياسي كما في خطاب الصحي ، لكنها لا تأخذ بمدى الفلسفي النظري إلا عند القليل . ولندكر من جملة هذه المجموعات كتب : عبد الله العروي وهشام جعيط والجابري واركون ونصار والتيزيني في كتاباتهم العامة .

(ج) مجال التفكير الاقتصادي

يمكن أن نعتبر سعيد حمادة رائد الدراسات الاقتصادية في العالم العربي بفضل كتابه «النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان» ١٩٣٦ ، ويفضل تدريسه أيضاً بالجامعة الأمريكية في بيروت ثم أتت فترة بعد الحرب العالمية الثانية ، جعل فيها علم الاقتصاد تقدماً لا بأس به في كل من لبنان وسوريا والعراق . في هذه الفترة ، برزت دراسات كما أنشئت مؤسسات . من الأسماء نذكر جبرائيل منسي وأمين الحافظ ، د. زلزلة و د. خير

الدين حبيب و د . أحمد سوسة . ومن المؤسسات : مجلة «الاقتصاد اللبناني والعربي» وكلية الاقتصاد ببغداد . ويبقى الى حدود الستينات علم الاقتصاد العربي وصفيّاً وأفضل الأحيان تحليلياً تطبيقياً ، ويقترّب من الجغرافيا الاقتصادية أكثر مما يحاكي علم الاقتصاد البحت . لكن مع هذا ، نجد الدراسات الجيدة عن الدخل والزراعة والصناعة . والفكرة التي طغت على البحوث الاقتصادية في العشرين سنة الأخيرة هي بالطبع فكرة النمو أو الإنماء ، وتحث لوانها قامت الدراسات الشخصية أو الجماعية (في الندوات) ، بحيث تحول علم الاقتصاد العربي الى بحث لا نهائي حول امكانيات التنمية . وما أن علمية التنمية تستقطب العديد من القطاعات ، فإن البحوث انصبّت أيضاً على ما هو ديموغرافي ، واجتماعي ، وسياسي ، اعتقاداً على فكرة شمولية الإنماء . ولا بد أن نلاحظ في هذا الصدد أن ارتفاع سعر النفط في سنة ١٩٧٣ أثر على أفق هذه الدراسات وفتح امكانيات للرؤية المستقبلية .

هذا وما زالت الدراسات الاقتصادية لم ترق الى مستوى التنظير العام ويتمحور حول فكرة التخطيط ، وهي تتأرجح بين الأفق القطري والأفق العربي العام . وقليلاً ما نجد كتباً هامة كتبها أفراد ، باستثناء البعض ، وتبقى أغلب المصادر منبثقة عن الجامعة العربية أو عن المؤسسات القطرية (مثلاً : المعهد العربي للتخطيط) ، أو عن مركز دراسات الوحدة العربية ، بحيث لا يظهر من أول وهلة أن إنتاج الجامعات له وزن كبير في الميدان خلافاً للفترة السابقة . أما المقالات فهي عامة وتتناول مشاكل مستقبلية وفي عددها أقل بكثير من المقالات المحررة من طرف الأجنبي (أنظر على سبيل المثال البيبليوغرافيا الذي يقدمها د. عبد الحميد ابراهيمي في كتابه «أبعاد الاندماج الاقتصادي العربي واحتمالات المستقبل») . ولندكر من جملة الأسماء الالامية : د . يوسف صائغ ، د . جورج قرم ، د . البشير داتوق ، د . خير الدين حبيب والآخرون . د . عادل حسين .

(د) التفكير السياسي والاجتماعي

لا بد من التأكيد أن المجتمع العربي الذي يبدو متسبباً للغاية لم يفرز فكراً سياسياً علمياً وتحليلياً يندرج فيما يسمى بالعلوم السياسية . ولذلك أسباب : منها الرقابة والرقابة الذاتية ، ومنها أن الثقافة السياسية التي استحوذت على العقول أخذت شكلاً شفوياً والكتاني الرصين أهل لفائدة الباحثين الأجانب ، ومنها تقام التفكير الايديولوجي المنحدر من الماركسية .

بينهم كتاب حنا بطاطو عن العراق والمعارضة الشيوعية
Princeton Press ، وكتاب الهرماسي حول المغرب
العربي California Press ، وكتاب محمود حسين
الماركسية المنبع ، وكتب أنور عبد الملك ، وهناك فصول
تخص تحليل الوضع السياسي بالمغرب في كتب
العروي وجميعة^(١) .

ومع هذا ، فالكلمة يعلم في المنهجية الأمريكية من سطحية
ونقص ، لكن الماركسية الميكانيكية الدغانية لا تفسر
شيئاً . في المجلة ، هذه البحوث تتسم بالطابع العلمي ولكن
المنهجية العربية لم تجد بعد في هذا المجال طريقها الخاصة
للبحث والتنظير .

أما الدراسات السوسيولوجية ، فنقصها فادح ولا نكاد نجد إلا
القليل من البحوث المبنية حول وسط اجتماعي معين . الخطر
الكبير في هذه الميادين هو استعمال السياسة كسلاح أو كدعوة
إصلاحية أو الانقراط في التنظير المنهجي . وما ينقصنا إذن هو
برنامج كامل للبحوث السياسية والاجتماعية يضيء لنا واقعنا
كما هو . وما عدا هذا ، فكل ما سمي بفكر سياسي عربي
هو دعوة وايدولوجيا ورؤى شخصية في الغالب مقولبة في
قالب واحد .

(هـ) الفكر التاريخي والبحوث التاريخية

المنطقي أن يكون هذا الميدان أغصب ميادين الانتاج الفكري
لما اتسمت به الحضارة العربية من عمق تاريخي وأيضاً من
تقاليد تاريخية عريقة . لقد قامت النهضة العربية منذ أكثر من
قرن على نبش التراث ، ونشر أمهات الكتب ، والاهتمام
بأضي العرب من عدة نواح ، وبالمخصوص الوجهة الثقافية
وقامت الأجيال السالفة بعمل ريادي في الكتابة التاريخية
(حله حسين ، أحمد أمين ، جرجي زيدان ، حسن إبراهيم ،
جواد علي) وهي كتابة أرادت لنفسها تجديد الرؤية للعالم .
إلا أن هذا الجهد انحصر كثيراً في السنين ، هذا مع ظهور
المؤرخ المهني المختص في إطار الجامعات . ونتج عن هذا أننا نجد
مؤرخين جيدين ، لكن عددهم قليل ، وتأثيرهم على جمهور
المثقفين أقل . ونذكر من بين رؤوس هذا الجيل الجديد عبد



بول كلي : الناقد .

وهكذا عندما نتوقف عند قائمة مطبوعات دار نشر كبيرة في
بيروت ، نجد تحت عنوان «السياسة والمجتمع» بليخانوف
وقانون وغرامشي ، ونكاد لا نجد عربياً واحداً جاداً . غير أن
كل هذا لا يدخل في صنف العلوم السياسية التي تتوخى
البحث في السلطة ، ومدى مشروعيتها ، وإشكال ممارستها ،
وأسسها الاجتماعية والايديولوجية ، بحيث لا نجد تقريباً
دراسات قامت بتحليل الأوضاع بمصر والعراق وسوريا
وتونس والمغرب الخ . . دون الانزلاق في هاوية الايديولوجيا
الرخيصة . وعلى العكس فالأعمال الأمريكية حول وضع
الشرق الأوسط تكررت في السنين ، وهي أعمال متحازة في
الغالب ولها نظرة خاصة إلى المشاكل العربية الكبرى .

أحس ما كتب في هذا الميدان ، كتبه عرب باللغات الأجنبية
وعادة في المناهج الجامعي الأمريكي أو الفرنسي ؛ ولندكر من

(١) لكن لا بد من ذكر الجهود التي يقوم به مركز الدراسات الاستراتيجية للأحزاب بالعمارة
تحت رعاية الدكتور سعيد ياسين . من جهة الباحثين المبدئين الدكتور علي الدين طلال الذي
نصب لهبطه على مشاكل العلاقات القبلية وأكثر فأكثر على مشكلة ومبرم الدولة -
الامتداد .

العزير الدوري (تاريخ العراق الاقتصادي) وصالح أحد الملي (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري) . ثم تسلاها من بعد شعبان Islamic History و Abbassid Revolution ، وفساروق عمر (طبيعة الدعوة العباسية: العباسيون الأوائل) . ونسج على هذا منوال ص . العلمي والدوري ، وهشام جعيط الذي كتب في أطروحته عن «الكوفة في القرن الأول والثاني للهجرة» . وهكذا فإن بين ١٩٤٨ ، وتاريخ بروز أطروحة الدوري ، و١٩٨١ تاريخ بروز أطروحة جعيط ، أي طوال مدة ربع قرن لا نجد إلا خمسة مؤرخين اختلفوا في الفترة الكلاسيكية الكبيرة ، أي الأربعة القرون الأولى وهي فترة لها دلالة خاصة . ان كتابات هؤلاء المؤرخين المحسة في تقريباً الوحيدة في كل الانتاج العربي في ميدان العلوم الانسانية المعترف بها عالمياً كبحوث جديدة .

ومع هذا فهم قلة ، اضافة الى ما يجدون صعوبات في تكوين مدرسة تاريخية لولع الناس بكل ما هو حديث ومعاصر ، ولانصراف الباحثين عن كل ما هو «تراثي» ، في حين أن المسألة ليست مسألة تراث وإنما مسألة معرفة تاريخية مضبوطة وقائمة على أحدث المناهج . وعلى كل فهذه الدراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري تجاوزت بكثير كل ما كتب في السابق كما أنها تتجاوز الكثير مما يكتب الآن من تاريخ مبتذل ضعيف حتى في الأوساط الجامعية . أما ما يخص فترات أخرى ورعاق أخرى من الحضارة العربية ، فإننا نلاحظ جهوداً محترماً بالمغرب (بحوث العروي والمنحاني والطاطي) . لكن لا بد من أن نذكر أن الولع بالحديث والقريب منا لم يأت بثمار جديدة : فهل لنا تاريخ جثتي لرقة الحلال الخصب منذ قرن . في هذا المضمار ما زلنا عالمة على كتاب جورج أنطونينوس .

وأخيراً لا بد من الإشارة الى ما يقوم به الأيوبيون في العالم العربي (بصر وبالحصوص بالعراق) من جهود تقيم في استكشاف الحضارات القديمة .

أما نجد مجلات تاريخية قيمة منبثقة عن كليات الآداب في لوطن العربي (القاهرة – بغداد – البصرة – الرباط على سبيل المثال) كان مجلة المجمع العلمي العراقي تستحق

الذكر والتنويه . لكن ما يلاحظ ويؤسف له هو فقداننا لمجلة تاريخية ذات قيمة عليا تشع على الساحة العربية بأكملها ، بينما مجلات الاستشراق كثيرة .

وواضح أن كل مشروع ضخم لكتابة التاريخ العربي ، على شرط أن يتحلى بالمنهجية العلمية والمستوى الرفيع حتى يصبح مرجعاً عالمياً ، كل مشروع من هذا القبيل يكون محل ترحاب لأنه يجمع الطاقات المبعثرة . ونحن على علم بمشروعين من هذا القبيل : «مشروع التاريخ الاجتماعي العربي الاسلامي» ومقره الكويت ، و «مشروع الموسوعة الادارية» ومقره عمان . لعل في هذا ما يحفز هم الباحثين المعروفين وهم الشباب ممن يتي ضامناً تائباً لا يرتي نفسه مستقبلاً في الأجهزة القائمة الآن .

٣ - تقييم عام وحلول للمستقبل

هناك عدة سمات بها الثقافة الفكرية العربية المعاصرة . وأول مميزاتها كونها ثقافة تساؤلية عملة بالرؤى المستقبلية أي هي ثقافة أمة تسائل نفسها من مصيرها اليوم ، وعن علاقاتها بالعالم الخارجي ، وبغضبا على السواء . وليست ثقافة إبداعية بالمعنى الذي تحمل فيه نظريات عامة حول الانسان والتاريخ والمجتمع عامة . ولذا بدت التيارات التي تخترقها تيارات سياسية ومذهبية أكثر منها مدارس فكرية . فمن مفكر له اتجاه قوي الى آخر فطري ، ومن الاسلامي الى العلماني ومن التحديثي والمفترب الى التراثي الى آخر ذلك ، وهذا الفاصل ندركه تقريبا في أي اختصاص معين ، لدى المؤرخ والفيلسوف وعالم الاجتماع والاقتصادي والمفكر السياسي طبعاً .

الى حد بعيد يبق الفكر العربي أسير النزعة الاصلاحية بالمعنى العام ، وما زالت الثقافة العربية تخاضع نفسها والدنيا حول إشكالياتها الأساسية : لماذا تقدم غيرنا ولم نتقدم نحن ؟ .

ليس من شك في أن صدمة الحداثة لم يقع تجاوزها منذ قرن ونصف وأن البحوث الفكرية ما زالت تتخبط في مثل هذا الألق مع رجاء التأثير على الواقع مباشرة . ويكون من عدم الانصاف أن نطالب الثقافة العربية الفكرية اليوم بأن

تتخلى عن المناخ الذي تعيش فيه كما عن الاشكاليات الموروثة فقد يكون هذا من باب المستحيلات . لكن مع هذا ولو قبلنا الأمر تماماً لوجب علينا أن نصرح بأن هذه الثقافة لا تساهم في 'المجهود البشري' لفهم وعقل العالم الانساني في تاريخه واقتصاده وقوانينه الاجتماعية وسنته اللغوية وتجديد التفكير الفلسفي فيه .

فلئن وجب أساساً على العرب أن يقوم فكرهم بتفهم مشاكلهم الذاتية بتعميق أكثر للأمور وحذق أدق للمنهجيات ، فواجب على البعض منهم أن يشجعوا على خوض المارك الفكرية العامة . وإذا كادت النقطة الأخيرة تكون منعومة ، فإن النقطة الأولى تشكو أيضاً من ضعف كبير . وفي هذا الصدد لا بد أيضاً أن يُمَيَّز بين الانتاج الايديولوجي الموجه لـ'المجاهير' (الذي قد يكون لازماً) والذي ينتج العدد الأوفر من الكتب والدوريات ، وبين الانتاج العلمي الجيد أو الانتاج الفكري العام ذي المرتبة الرفيعة .

هذه الدائرة الأخيرة - على الرغم من عناصر تقدم ملموسة - ما زالت ضئيلة . وقد أكون متعسفاً لو قلت إن العرب لم يصدروا أكثر من مائة كتاب في شق الميادين الموسوعة تتمتع بالمستوى المرجو ، وهي دراسات تخص وضعهم أو تاريخهم الخاص . والملاحظ مع هذا أن الثقافة العربية عريقة في هذه الميادين ، أي ميادين التحليل والعلم الانساني والقانون والتاريخ والاقتصاد . هي ثقافة فكرية ذهنية من قديم ، وأدل دليل على ذلك أننا نفخر بابن سينا والطبري والمقدسي والبيروني ، بينما يفخر الانكليز بشكسبير والفرنسيون بـ'روايش' أو كتابات التراجيديات عندهم . الشعر والفكر هما سهل الثقافة العربية وليس الابداع الأدبي الخيالي . ليست الثقافة العربية القديمة - سوى في المستوى الشعبي المكتوب - ثقافة خيالية بل هي ثقافة جامعية وعقلية .

وإنما التقليد الثقافي يسيطر على مناهج الابداع ، فلا أرى أن عرب اليوم سينبغون في الميدان المسرحي أو في الميدان الروائي أو في ميدان الفن الكلاسيكي ، بل في ميدهم المعهود الذي كانوا يسمونه علماً وحكمة وتسمية اليوم : علوم إنسانية - علوم اجتماعية . تفكير شمولي يتسم بالعمق . وإذا عجز العرب عن إنشاء سوسيولوجيا بالمعنى الصحيح وتاريخ وعلم جغرافيا

واقتصاد وعلم سياسة ، فهم في غير ذلك أعجز ! إن كل عمل في سبيل إحياء هذا الاستعداد وخلق كيان علمي وفكري لعرب اليوم هو عمل ذو بُعد مصري . لأن الأمة قامت على فكرة مجدها الثقافي وهذا منذ أكثر من قرن ، ولا يمكن البتة أن ينحصر هذا المجد في الماضي ، بل علينا أن نؤسس مجداً جديداً يعطي الأمة العربية مقامها بين الأمم .

ثم إن هذا المجهود لو أعطي حقه ، لرفع على الأمد البعيد المستوى الذهني لأمة بأكملها وأقمها قسراً وعلى المستوى العميق في العقلانية الحديثة .

صور المستقبل أو شروط التقدم

- تحسين الحكومات والجماهير بهذه القضية وتشجيع القراءة وتحسين صورة العالم المفكر .

- لا بد من سياسة كتاب حكيمه .

- الجامعات العربية غير مؤهلة اليوم للقيام بهذا المجهود ولذا وجب تعزيز وتطوير كل الأقسام المعنية.

- وجوب تكوين مراكز للعلوم الانسانية والاجتماعية متفرغة تماماً للبحث ومنحها الاستقلال التام عن النظم الحاكمة والميكنات الايديولوجية .

- وجوب تكوين مركز عربي يسمح الساحة العربية كلها ويكون من طراز عال للبحث والتفكير الحر ، يلتقي فيه علماء زائرون من الوطن العربي ومن الخارج على السواء . ويقع فيه تبادل الآراء والبحوث والتفريغ للكتابة لمن يشاء . ويجهز هذا المركز بمكتبة شاملة ، ولا يكون شكله بيروقراطياً .

- وجوب تدريج الطلبة على معرفة اللغات الأجنبية - لا بد من إخراج العلماء العرب من القافة العادية كي يتفرغوا تماماً لأبحاثهم وأعمالهم .

- تشجيع مشاريع تستهدف :

- تكوين مجلات علمية دورية ذات سمعة عالمية وهذا على النطاق العربي ، أي لا بد من مجلة تاريخية عربية وأخرى لعلم الاجتماع وأخرى للعلوم السياسية وغيرها للفلسفة أيضاً والاقتصاد .

اننا نلاحظ وجود مجالات ثقافية متنازة ، لكن لا وجود لمجالات
دات طابع علمي أكاديمي .

ان المشاريع الكبيرة كتصنيف موسوعة تاريخية وموسوعة
فلسفية . . الخ لها في الطرف الحالي أهمية بالغة لاستقطاب
وتجميع القوى ، وفتح أبواب الأمل والطموح أمام الباحثين .

خاتمة

لقد حصل في الجملة تقدم نظري في معالجة مشاكل العالم العربي
من الوجهة الفكرية . فلم نعد عالة على المستشرقين في دراسة
تاريخنا ولا على الخبراء الأجانب في دراسة اقتصادنا . لكن

نلاحظ أن هذه الجهودات قمت بفصل أوس أمموا بالعكر
والثقافة ، وقليلاً م حظوا بتشجيع من الحكومات أو الجماهير
والخطر اليوم أن يهدر هذا الجهود وأن ينقرض علمائنا دون
أن يتمكنوا من تكوين أجيال جديدة على ما يلزم من حب
المعرفة ومنهجية كاملة . هذا تخوف ليس مصدره التشاؤم وإنما
حقيقة الأمور . وعلى العكس ، لو صحت العزيمة وتطافرت
الجهود وأعطيت الامكانيات المادية والأدبية وتحسن المناخ
العالم ، فليس من المستحيل أن ندخل الألف الثالث مسلحين
بنخبة ممتازة وبعلم عربي صحيح يكون له من التأثير القريب
والبعيد ما قد ذكرت .



ملحق

من الدراسات الجديدة التي تستحق الانتباه نذكر :

- د . الجابري : الخطاب السياسي العربي ، الطليعة ، بيروت ١٩٨٢ .
- د . عبد الفضيل : الفكر الاقتصادي العربي .
- د . عادل حسين : الاقتصاد المصري من الاستقلال الى التنمية ، (١٩٧٩ - ١٩٧٩) ، المستقبل العربي ، القاهرة ، ١٩٨٢ . بالنسبة

لنظريات التنمية ، هذا الكتاب يمثل نقداً للنظرية العربية كاللنظرية
للماركسية .

ولنذكر من مجلة الاقتصاديين فؤاد مرسي (م يصل الى مستوى عال في
التنظيم) وجلال أمين (يجد عنده نقداً لفؤادج التنمية) . أما سير أمين
فدراساته تبقى عملاً للنقاش .

اردموته هالر

شهرزاد والحركة الرومانتيكية في أوروبا

حدث مراراً منذ عصر النهضة أن قام أشخاص بإدلاء أدوارهم على
المسارح الإيطالية متنكرين في زي «الشرقيين» . ولم يكن
الشاعران الإيطاليان «أريوستو Arioste» (١٤٧٤ -
١٥٣٣) و «تاسو Tasso» هما الوحيدان اللذان نزعا إلى



كلبي نيلسن : رسوم مستوحاة من ألف ليلة وليلة .

التدهور التدريجي لسيطرة الايديولوجية المسيحية ، ليسهل توجه أوروبا الثقافي باتجاه العالم الاسلامي . ولجأة أصبح للشرق أثر محوري على أوروبا . ولم يعد عالم الخلفاء والحكايات الخرافية والحوارق والمغامرات والقصص الخيالية يجذب اليه الرحالة والرسامين لحسب ، بل الشعراء والأدباء أيضاً . غير أن هؤلاء - وهم يتغنون بهذا الشرق «الجديد» - ظلوا أسرى تلك الصور الوهمية التي ساهم الرسامون الاستشراقيون في ابصامها اليهم . ونحن نجد هذه الصورة واضحة في أعمال موليير «البورجسوازي النبيل» وراسين (١٦٣٩ -

الاغرابية اذ لم يمض وقت طويل حتى بدأ الممثلون في مسرحيات موليير (١٦٣٢ - ١٦٧٣) يرددون كلمات تركية أثناء تأدية أدوارهم . وفي القرن السادس عشر عندما بدأ أوائل الأوروبيين تدريجياً في الترحال الى الشرق ، أخذ بعضهم بعد العودة الى أوروبا في ارتداء ملابسهم على «النسط التركي» ، أي السروال الفضفاض والطربسوف والجوارب البيض .

انعكست عالمية العصر الجديد وتطلعاته الموسوعية في أدب متكلف ومتصنع وفي حاجة ملحة نحو التفريب الثقافي . وجاء



كاي نيلسن : رسوم مستوحاة من ألف ليلة وليلة .

١٦٩٩) «باجريه» ومونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥)، «رسائل فارسية» وفولتير Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨)، وشاتوبريان Chateaubriand (١٧٦٨ - ١٨٤٨) ولامارتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩) وفلوبير Flaubert (١٨٢١ - ١٨٨٠) «صالاميو» .

عندما كتب غوته Goethe أبياته الجميلة هذه ، كانت أوروبا قد شارفت حينذاك على أبواب قرن شكل ولم يزل بشكل صورتنا عن الشرق وعن عالم الاسلام . ونظراً لاندحام مصلحتنا في ذلك الوقت ، في الحصول على معرفة موضوعية حول ذلك ، فقد ظلت تلك الصور الوهمية والمهزورة قائمة الذات .

ساهمت في المقام الأول حكايات ألف ليلة وليلة في خلق تلك الصور الرومانسية الخيالية عن الشرق ، إذ حملته معها ونقلته الى الغرب . ونسئ للغرب من خلال حكايات شهر زاد اكتشاف الشرق . ولا يوجد مؤلف شرقي أثر تأثيراً قوياً في الأدب الأوروبي مثل تلك الحكايات الشعبية الرائعة والجذابة . وبين ليلة وضحاها أصبح هذا الكتاب جزءاً لا يتجزأ من الأدب العالمي تماماً مثل «إلياذة» Homeros ، و«أينيس» Aeneis و «فرجيل» Vergil و «ديكاميرون» Decamerone و «بوكاتشيو» Boccaccio و«الملمحة الألمانية» Nibelungenlied القديسة .

خلال القرن الرابع عشر بدأ الأوروبيون عن طريق الرحالة الفلافل للشرق ، يعرفون الاطار العام لقصص شهرزاد الجميلة التي حاولت طوال الف ليلة وليلة ، أن تقص على الملك شهریار حكايات مجيبة لتصنه عن قتلها . وكان التأثير الأول في ايطاليا . وكان بوكاتشيو أول من استفاد من الاطار العام لالف ليلة وليلة وذلك في راعته «ديكاميرون» ومعناها «الأيام العشرة» .

لا تمكس صور الغرب عن الشرق إلا جزءاً من الواقع . وهي تمكس بالدرجة الأولى وضماً تاريخياً : إذ منذ حصار فيينا عام ١٦٨٣ بدأ تحول تدريجي في رؤية أوروبا للشرق الذي كان الأتراك المئانيون آخر ممثليه التوسمين . ولم يعد ينظر اليه كشيطان مخيف . صحيح أن الشرق الاسلامي ظل بالنسبة لأوروبا عدواً ولكنه كان عدواً مدحوراً مصيره الفشل والهزيمة ونظراً لأنها شرعت منذ القرن الثامن عشر في الإعداد للاسراع بهذه الهزيمة ، فقد أباحت لنفسها تمجيد الشرق كهد للديانات والحضارات القديمة . وكان هذا التمجيد يتعاظم كلما ازداد تدهور الشرق وسقوطه . وقد نتج عن هذا التمجيد ظهور عدد كبير من اللوحات والكتب الرومانسية مستوحاة من العالم الاسلامي ظل جمالها الساحر اذائع أسطورة قائمة بذاتها مثل الشرق . .

بروعة وجلال

تخطى الشرق البحر المتوسط

وحده الذي يعرف «حافظ» ويحبه

يقدر أن يدرك ما غناه «كالدريون»



المتوفرة ، ولذا أعاد صياغتها بالفرنسية كما تملها . وقد كتب الفقرات العربية المكتوبة بلغة متمعة ، بلغة فرنسية سلسة ومصقولة . كما أعاد صياغة المقاطع الشعرية نثراً وحذف بعض التفاصيل تماماً ، وبني من جديد حكايات كثيرة مستغنياً - مراعاة لاخلاقية عصره - عن فقرات وأحداث ربما كانت تبدو مبتورة ، أو غريبة ، أو غير مألوفة بالنسبة للفرنسيين في ذلك الوقت .

ولكن رغم الاسقاطات والتغييرات التي أجراها غالان على النص العربي ، فإن ترجمته تلك هي التي ولدت ذلك الحساس الكبير لمعرفة الشرق وتلك الرغبة المحمومة في الضياع في متاهاته الشاسعة .

وقد بدأ هذا التوجه الجديد في فرنسا في منتصف القرن الثامن عشر ، ثم انتقل الى انكلترا ليصل أخيراً الى ألمانيا . ويمكن القول بأن الحركة الرومانسية مدينة بدرجة كبيرة لهذه الترجمة . بل أن هناك من يذهب أبعد من ذلك ، ويقول أن الرومانسية الأوروبية قد ظهرت في تلك اللحظة التي قام بها شخص ما في النورماندي بترجمة غالان لآلاف ليلة وليلة .

الشرق - «العالم المغاير» - لأوروبا

خلال القرن الثامن عشر ، حاولت أوروبا العقلانية والمنهجية والضجرة الى حد ما ، أن ترى في الشرق «صورها

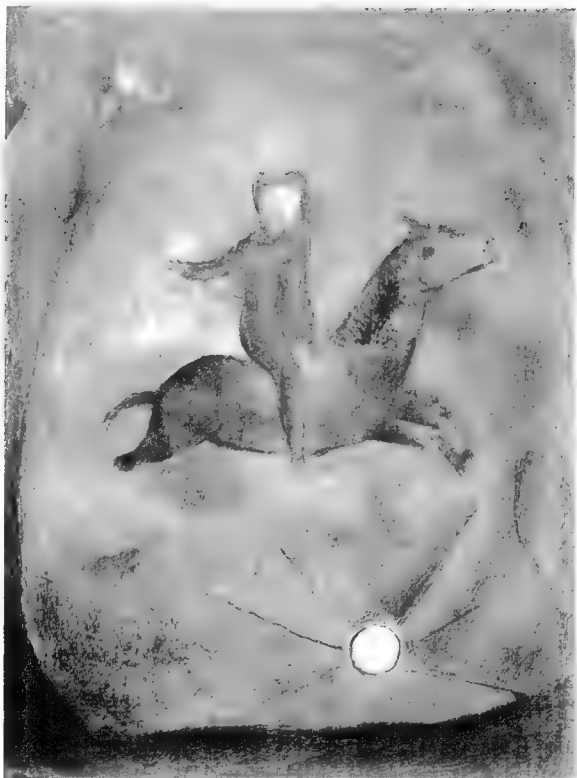
ولكن المؤلف الأصلي لم يشتهر ولم ينتشر في أوروبا الا بعد ظهور الترجمة الفرنسية التي قام بها المستشرق الكبير أنطون غالان (١٦٤٦ - ١٧١٥) . خلال أسفاره الكثيرة عبر بلاد الشرق ، انتبه غالان الى ذلك العدد الوفير من القصص والحكايات الحرافية والملاحم الثرية والحوارات التي كانت تُروى في أسواق ومقاهي وشوارع دمشق والقاهرة وبغداد والبصرة ، وأيضاً حول مواقد النار في الأماكن التي تستريح فيها القوافل .

وقد استند غالان في ترجمته التي قام بها للملك لويس الرابع عشر ولحاشيته ، الى عدة عطلوطات عربية ، والى الروايات الشفوية المنقولة من جيل الى جيل وبقدرة فنية مذهلة تمكن من أن يكتيف الشبق الشرقي من ذوق «العصر الكبير» Le Grand Siècle الذي كانت تميحه فرنسا آنذاك .

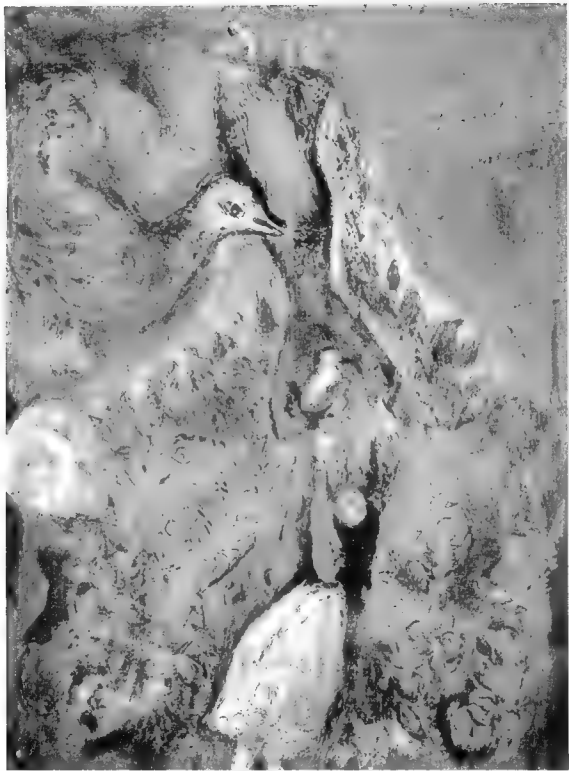
صدرت الترجمة المذكورة عام ١٧٠٤ وعام ١٧١٧ في إثني عشر مجلداً ، غير أنها كانت مبتورة الى حد ما ، إذ أنه تم حذف الفقرات والمقاطع المتنافية مع اخلاقية ذلك العصر . ولا عجب في ذلك ، فحكايات ألف ليلة وليلة - وهي نتاج مرحلة الازدهار الفكري والفني في عصر العباسيين - قد انسمت بالحرية المطلقة ، وعكست جواً يمتق بالاثارة والشهوانية . وهو ما كان متنافياً مع تلك الرؤية المنمطة والضيقة والديكارنية التي كانت سائدة في فرنسا آنذاك .

يمكن القول أن غالان لم يتم ترجمته ملتزماً بالنصوص الأصلية





مارك شافال : قصة حصان الإيغولس الثالث .
(الورقة ١٢ من اللوحات الخاصة بالقبلي السربية) .



مارك شافيل : قصة الجملندر ، جنبة البحر وابنها الملك بدر القارص (٣) .
(الورقة ٦ من اللوحات الخاصة بالليالي العربية) .

غالان حفزت آخرين للقيام بنفس العمل . غير أن ترجمة غالان ظلت رغم ذلك الأكثر اتقاناً والأكثر إقناعاً . ومن الأكيد أن أغلبية الشعراء الرومانسيين الأوائل اطلعوا عليها واستلهموا منها تلك العوالم الحارة والعنيفة التي تميزت بها أشعارهم . ولقد قام بين الشاعر الألماني فيلهلم شيلغل Wilhelm Schlegel والرومانسي الانكليزي صامويل تايلور كوليرج Samuel Taylor Coleridge نقاش حاد حول أصل الف ليلة وليلة ومؤلفها . وانخرط في هذا النقاش مستشرقون مشهورون في ذلك الوقت منهم : يوسف فون هامربرغستال Joseph von Hammer-Purgstall وسلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy وفي ما بعد وليم ليم William Lane . وفي سنوات لاحقة أراد بنيامين دزرانيلي Benjamin Disraeli (١٨٠٤ - ١٨٨١) إصدار طبعة جديدة تتضمن فصلاً من تأليفه .

شهرزاد في إنكلترا :

حاولت إنكلترا خلال العصر الفيكتوري أن تثلث من التزمت والتقاليد الصارمة بالهروب الى عالم بحري ، هو عالم الشرق . وكانت هذه الرغبة في الرحيل باتجاه الشمس والغموض والأحلام بمثابة رد فعل على سيادة العلم والنغمية المادية في عصر التنوير . وقد وجد التحول الاجتماعي والسياسي الذي تم في بداية المجتمع الصناعي نقيضه في عالم التخيلات المحض وفي الأساطير . غير أن ذلك التوجه كان نحو اللانهاي والميتافيزيقي والفاض . وعلينا أن نتنظر أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين لكي ندرك أوروبا تلك «الحكمة» السياسية بمفهوم هاينريش بل التي تضمنتها قصص وحكايات شهرزاد .

وفي إنكلترا كانت الف ليلة وليلة منبع إلهام الجيل الأول من الشعراء الرومانسيين مثل صامويل تايلور كوليرج (١٧٧٣ - ١٨٣٤) وليم وردزورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠) ووالتر سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٣) وتوماس كارليل (١٧٩٥ - ١٨٨١) واللورد بيرون (١٧٧٨ - ١٨٣٤) وتوماس مور (١٧٧٩ - ١٨٥٣) وجون كيتس (١٧٩٥ - ١٨٢١) .

وكان اللورد بيرون من أوائل المستفيدين من الف ليلة وليلة . ويبدو ذلك واضحاً في عمله «الحكايات الشرقية» الذي كتبه

المغايرة» ومبرها لأحلامها ولرغباتها المغمومة والمكبوتة ، وقد ألهمت الاغرابية الاستشراقية خيال الرسامين ، وطلّحت بهم بعيداً في ملكة الحلم والسحر . وكانت النتيجة ذلك الاحتفال الصاخب بالألوان لايمز الدهشة والانبهار أمام عالم غريب وجذاب : عالم المآذن والمساجد ودور الحرم . وكل ذلك نجده في لوحات ديلاكروا Delacroix ودي كلب Decamps وجيروم Gérôme وأنغرس Ingres وبساورن فاينسد Bauernfeind وديتش Deutsch وآخرين .

إن كتاب الف ليلة وليلة هو الذي شكّل ولا يزال يشكل «صورة الشرق» . وفي إحدى مقالاته قام جورج لويس بورخس - الكاتب الأرجنتيني الكبير - من خلال منظور سياسي وفلسفي بتحليل ذلك الاقتتان بالشرق الذي بلغ أحياناً حدود اللاعقلانية . وهو يرى أن هذا الاقتتان يعود الى عنوان الكتاب نفسه والذي يعتبره من أروع العناوين في العالم وهو يقول في هذا الصدد : «الف ليلة وليلة : أريد أن أتوقف عند هذا العنوان . إنه أحد أروع العناوين في العالم ، أروع من عنوان «دون» : تجربة مع الزمن» . ولهذا العنوان اليوم جمال آخر . وأعتقد أن كلمة «الف» لها مرادف «الانهاي» . وعندما نقول «الف ليلة وليلة» فاننا نعي بذلك لبالي كثيرة لا يمكن عثا . وعندما نقول «الف ليلة وليلة» ، فاننا نضيف ليلة الى الليالي التي لا تنتهي ، ويمكننا أن نتذكر العبارة الانكليزية «أحياناً لكي نقول «الى الأبد» (For ever) نقول «الى الأبد ويوم آخر» (For ever and a day) ، يضاف «يوم» الى كلمة «الى الأبد» . وهذا يذكرنا ببيت هاينريش هاينه Heinrich Heine : «أحبك والى الأبد وربما الى أبعد من ذلك !» .

ويعيد بورخس هذا الاقتتان المعقوي بالشرق أيضاً الى كلمة «الشرق» Orient نفسها . فحين ننطق بهذه الكلمة تتبادر الى أذهاننا كلمة «OR» أي الذهب وكلمة «AURORE» وتعني حمرة الفجر . ذلك أن الشمس حين تبرز تتلون السماء باللون الذهبي كما ورد في جملة دانتي Dante الشهيرة : Dolce color d'oriental Zaffiro .

وقبل أن نستعرض تأثرات الف ليلة وليلة على الحركة الرومانسية الأوروبية في بداياتها لا بد أن نشير الى أن ترجمة

بنفس أسلوب الرومانسيين الأوائل : رؤية الشرق كأرض كلها مغامرات بحيرة وعواطف جياشة وقسوة غاشمة ، أرض «فانتازيا» يسكنها السحرة والمجانين والمخلوقات المتعمدة الأشكال والألوان .

وبفضل هذه الرؤية حقق «بيرون» نجاحاً منقطع النظير حتى أنه نصح «توماس مور» بضروة التركيز على الشرق . وقد أخذ «مور» هذه النصيحة بعين الاعتبار في روايته «لا لا روخ» مليئاً بذلك حاججة قرائه المثلثين الى الشرق وبالأحرى الى صورته المهيمنة على مخيلته منذ عصر النهضة ، صورة مشبعة بالرغبات والخيالات الجامحة . وليس «بيرون» وحده الذي استأثر الشرق بخياله . هناك أيضاً «وليم وردزورث» الذي شارك «كولريديج» في تمجيد الطريق لقيام الحركة الرومانسية في انكلترا حين أصدر مجموعته «أساطير شعرية» . وكان قد تأثر في شبابه بالروايات الشرقية التي كان يستلها «كنز الليالي العربية الرائع» .

أما «والتر سكوت» مؤسس الرواية التاريخية الحديثة في الأدب الانكليزي فينتج في رواياته «ويسفري» و «قصة صاحب البيت» نفس الأسلوب الوثائقي الدقيق «لليالي العربية» . وقد قامت مجلة «بريتش كريتيك» بتقارنة لروايات سكوت هذه «بالليالي العربية» لأنها حسب رأيها تعطي هي الأخرى صورة صادقة للعادات والتقاليد الشرقية . وكان صامويل تايلور كولريديج مثل غوته من المعجبين بالأسلوب القصصي لحكايات شهرزاد وبتداخل الأحداث فيها وهو ما ساهم في استتارة ميله الى الطواهر الروحية والخارقة . وكان كولريديج مثل «هوغو فون هوفنشتال Hugo von Hofmannsthal» يحس أثناء قراءة تلك الحكايات بمخيلته غريب من الحوف الغامض والرغبة النارية والعشق المنوجس . وظل ذلك يلازمه طول حياته . ويرى كولريديج أن قصص شهرزاد شبيهة بالأحلام ، إنها لا تبعدنا عن الواقع ولكنها تعطينا صورة مغايرة له ، تلك الصورة التي لا يقدر على إدراكها العقل ونحن نجد في قصته «البحار القديم» و«الليالي العربية» أن الروح الحاملة تسلم نفسها الى تيارات لا تحصى من الأفكار والأحاسيس والصور المتعاقبة مثلما يقع في الحلم تماماً أو مثلما الأمر في قصة الأمير أحمد وفي بداية رحلة سندباد

السادة بعد أن غرقت سفينته . خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر كانت انكلترا منيرة بكتاب ألف ليلة وليلة لغرابته وللفنصر الخيالية والمغامرات الخارقة التي احتواها . أما في العصر الفيكتوري فإن الشعراء والأدباء أقبلوا عليه بسبب قيمته الفنية والأدبية وطريقته الرائعة في وصف الواقع والنفاذ الى دواخل النفس البشرية ولحكمه الفلسفية . ومن المعلوم أن هناك طبقة متوسطة ظهرت في انكلترا بعد احتلالها للهند وبعد توسعها في الشرق وكانت لها مصالح واضحة وملموسة في التعرف على تاريخ تلك المنطقة وعلى شعوبها وعاداتها وأفكارها وهذا ما ساعد كتاب ألف ليلة وليلة على الانتشار بسرعة خارقة في أوساط الأدباء والشعراء في انكلترا .

شهرزاد وأدباء الرومانتيكية الألمان

مثلما حدث في انكلترا ، أثارت حكايات ألف ليلة وليلة أيضاً في ألمانيا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر موجة من التوق والحنين الى الشرق . ومماثل فنان معظم أدباء الرومانتيكية الألمان لم يتعرفوا في البداية على كتاب ألف ليلة وليلة الا عن طريق ترجمته الفرنسية التي قام بصياغتها غالان Galland . وقد ظهرت عام ١٧١٠ أول ترجمة ألمانية قام بها تالاندر Talander عن النص الفرنسي لغالان ، وذلك قبل أن ينهي غالان ترجمته الكاملة لآلاف ليلة وليلة Mille et Une Nuits ولم يكن هذا الكتاب الذي يُعد «أكثر كتب القصص الخرافية حظوة في العالم» يعتبر في ألمانيا حينذاك سوى مطالعة للترفيه والتسلية ، كما أن ترجمة غالان غير الكاملة بقيت لفترة طويلة النص الوحيد المتاح . وقد أرجع الكاتب جيورج كريستوف لشتنبرج Georg Christoph Lichtenberg ذلك التقصير الى افتقار المستشرقين الى الاحساس المرهف . إذ كان من رأيه «أنه يوجد في ألف ليلة وليلة حكمة مفيدة وعقل سليم أكثر مما يعتقد كثير من الناس الذين يدرسون العربية ، ولو انتبهنا الى هذه الناحية لكان لدينا الآن على الأرجح ترجمات لبقية الأجزاء» . ولم يمكف المستشرقون الاثان على نقل هذا العمل الأدبي من العربية مباشرة الى الألمانية إلا بعدما صدرت النسخات الكاملة الأولى من الأصل العربي في النصف الأول من القرن

فريدرش ليوبولد فون هاردنبرج Friedrich Leopold Freiherr von Hardenberg ١٧٧٢ - ١٨٠١ ، وأدبرت فون شاميسو Adelbert von Chamisso ١٧٨١ - ١٨٣١ ، وكليمنز فون برينتانو Clemens von Brentano ١٧٧٨ - ١٨٤٢ ، وهانريش هاينه Heinrich Heine ١٧٩٧ - ١٨٥٦ ، وفيلهلم هاوف Wilhelm Hauff ١٨٠٢ - ١٨٢٧ ، وكريستيان فريدريش هبل Christian Friedrich Hebel ١٨١٣ - ١٨٦٣ - ولكن على وجه الخصوص أيضاً يوهان فولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe ١٧٤٩ - ١٨٣٢ .

وصف جين بول Jean Paul كتاب الحكايات الخرافية «بأنه الكتاب المفضل ليس فقط للكاتب والفيلسوف الفرنسي مونتسكيو Montesquieu بل أيضاً لكل صديق للشعر الرومانسي». وكتب هردر يقول: «لقد رُفِّعَ كتاب ألف ليلة وليلة عن أكثر من ألف قارئ وقارئ». أما الاخوان جريم فقد تَوَّها «بالألوان والوهجة والجمال المرفف والشذى العطري للخيال المزدهر في صفاء وبالحياة النابضة في كل مكان» .

وقد مهَّد هردر - الذي كان يعتبر اللغة ، والشعر بالذات كأسى صورة للغة ، أكثر الوسائل مباشرة لإظهار جوهر وطبيعة الشعوب والمصور التاريخية - المناخ الأدبي لفترة الغليان والثوران . وقد أشار في «مقالاته حول التاريخ العالمي» Aufsätze zur Universalgeschichte الى المساهمة الاسلامية في الثقافة العالمية ، بعدما اشتغل لفترة طويلة بالآداب الشرقية . كان العرب في رأيه «معلمي أوروبا» . وفي سعي الانسان للبحث عن الاخلاقية والانسانية العامة اكتشف الآثار الأدبية للشعوب الأخرى - وعلى وجه الخصوص أعمار العرب والفارسيين . والسبب في ذلك - كما يقول فولفديترش فيشر Fischer في مقال له تحت عنوان «لقاء مع أدب الشعوب الاسلامية في أوروبا» Begegnung mit der Li- teratur der islamischen Völker in Europa - هو أنه «في الشعر تتجلى الإنسانية بأسمى صورها التي ارتقت اليها الحضارة الخاصة بها» . وكتب يوهان جيورج هامان Johann Georg Hamann يقول : «الشعر هو اللغة الأم للبشر» . وقد انهك يوهان جوتفريد هردر في دراسة اللغة والآداب الشرقية على نحو قلما فعله أحد غيره .

التاسع عشر (النسخة الأولى المطبوعة في كلكتا عام ١٨١٤ ، والنسخة المصرية المطبوعة في بولاق) . وقد بين يوسف فون هامر - بورجنستال - الأستاذ المتعبد للدراسات العربية الالمانية - ودافع جهده الشديد في إعداد ترجمة ألمانية لهذا العمل الأدبي بأكله على النحو التالي : «من هذه الحكايات تتعرف على العرب أنفسهم : تحت خيام البادية وفي بلاط الخليفة ومع القوافل الراحلة وفي داخل مقصورة الحرم» . وقد قام فريدريش روكرت Friedrich Rückert ١٧٨٨ - ١٨٦٦ ، الذي استُدعي عام ١٨٢٦ لتولي منصب أستاذ اللغات الشرقية بجامعة إرلانغن ، هو أيضاً باقتباس حوافز فكرية أو أحداث عديدة من ألف ليلة وليلة في كتاباته وقصائده ، ككتابة الضرر «بابا عبد الله» على سبيل المثال .

وقد كان روكرت هو الشاعر الالامي الوحيد الذي له إتصال مباشر بالأصل العربي لألف ليلة وليلة . وقد قدّم واحداً من الداخل الرائدة الى الثقافة والتاريخ الاسلامي في مجموعاته الأدبية «مباهج وتملّات من الشرق» Erbauliches und Beschauliches aus dem Morgenland ، وسبعة كتب أساطير وحكايات من الشرق - Sieben Bücher morgenländischer Sagen und Geschichten . بيد أن روكرت كان شاعراً أكثر منه عالماً . وقد ذاع صيته في ألمانيا على الأخص من خلال ترجمته للشعر العربي القديم . وقد شيدت ترجماته الحرة «لفامات المريخي» ، و «لأشعار الغزل» للمنتصوف جلال الدين الرومي ، ولأجزاء كثيرة من «جولستان» Gulistan لسماوي أسس تقاليد الترجمة الشعرية المبدعة في ألمانيا لقصائد من مناهل الأدب الكلاسيكي العربي والفارسي .

ولقد كان لكتاب ألف ليلة وليلة ، كتاب السحر من الشرق ، تأثير عمري بوجه خاص على شراء فترة «الغليان والثوران» Sturm und Drang وعلى شراء ، مثل ، لشتنبرج Lichtenberg ، ويوهان جوتفريد هردر Johann Gottfried Herder ١٧٤٤ - ١٨٠٣ ، والأخوين فون شليجل Schlegel (أوجست فيلهلم ١٧٦٧ - ١٨٤٥ وفريدريش ١٧٧٢ - ١٨٢٩) ، والأخوين جريم Gebrüder Grimm (ياكوب ١٧٨٥ - ١٨٦٣ وفيلهلم ١٧٨٦ - ١٨٥٩) ، ونوفاليس Novalis (واسمه الحقيقي فريدريش ليوبولد فريهير

وقد أثار اشتغال هردر بالشعر العربي الإسباني إعجابه الشديد بالثقافة العربية الإسلامية . كان هردر مقتنعاً بأن الشعر الوجداني الهروفاقي نابع - بصورة مباشرة أو غير مباشرة - من الشعر العربي . وكان يؤمن بالرأي الذي يقول أن البواعت الأولى لحركة التنوير المظلي في أوروبا ترجع إلى الاحتكاك مع الحضارة العربية في صقلية وإسبانيا . وفي عمله أدراسيا Adrastia ، وهو مقالات عن الأدب أنجزها هردر في الأعوام ١٨٠١ - ١٨٠٣ يدون هردر ما يلي : « اللهم جنبنا الويال الذي يوجه الأمور على نحو غريب ، ولا تحرم قارتنا الأوروبية أبداً من السنين الاثنين للعالم شرق وجنوبه ، ألا وهما اللغتان العربية والفارسية » .

كان جوته على العكس من ذلك أثناء إنشغاله بأدب الشرق متمسكاً بمقولة زمن قد ولى وإنصرم - أي بالموقف الكلاسيكي الذي رفع مكانة الشرق كسحر سرمدي . لقد كان جوته في مراحل إنتاجه الأدبي المختلفة معنياً دائماً وأبداً بالشرق . وقد دفعته دراسته للقرآن الكريم إلى الاهتمام بالاسلام وبسيرة محمد . ومن المرجح أن تكون رواية فولتير Voltairre الدرامية «محمد» قد ألهمت جوته أن يكتب هو الآخر قصة درامية عن محمد ، بيد أنها بقيت للأسف أجزاء متناثرة . وقام جوته نفسه بترجمة بعض آيات القرآن الكريم عن ترجمة لاتينية لماركيوس . ورجع رواية أدب الرعاة الرُّكوكية «نزوة العاشقين» وكذلك شخصية الخلاقي في رواية Wilhelm Meisters Wanderjahre بلا ريب إلى اتجاهات فكرية استلهمها جوته من الف ليلة وليلة . ومن المحتمل أيضاً أن تكون مطالعته لمجموعة الحكايات الخرافية وقربه من هردر قد استثارت إعتماده بالشعر العربي الكلاسيكي . غير أن جوته لم يكف على الدراسة العميقة لألف ليلة وليلة إلا في الفترة ما بين عامي ١٨١٤ - ١٨١٩ ، أي أثناء تأليفه لروايته الشعرية «الديوان الشرقي - الغربي» التي أنصبت فيها كل الاتجاهات التي استلهمها جوته من شعر الشرقي ومن القرآن الكريم ومن المملكات ومن أبيات شعر جلال الدين الرومي وفريد الدين العطار ، وكذلك من حكايات ألف ليلة وليلة .

ذكرت كاتارينا مومزن Katharina Mommsen ، الأستاذة المتخصصة في دراسة جوته ، في كتابها «جوته وألف ليلة وليلة» ما يلي : «سوف ينبغي الحقيقة الآتية أن نظل دائماً

مدعاة للاستغراب ، وهي أن يحدث في القرن الثامن عشر بالذات ، قرن التنوير والفلسفة العقلية وذوق التقليد للطراز الكلاسيكي ، إستيمباب وتقبل ألف ليلة وليلة مثل ذلك القدر من الترحاب والامتنان ، غير أنه من المحتمل أن يكون العكس هو الأقرب للصحة ، أي أن التنوير بالذات تحركة تحرير الأنماط الفكرية والتصورات الاخلاقية المألوفة والمحددة بالطابع الديني قد خلق بوجه نحو العقلانية والشمولية والعالمية الأسباب الحقيقية لانفتاح الأوروبيين الذهني تجاه القيم الفكرية للشرق » . وفي باكورة أعماله الأدبية التي انتمت بالطابع الكلاسيكي يختلف جوته عن بقية أقرانه من أدباء الرومانتيكية ، ذلك أنهم كانوا لا يبحثون في بحر الاستغلال الذاتي هيامه الفكرية الذي إنطلق من معاقله عما هو صحيح بصغة عامة ، بل كانوا يتفنون الغريب والعجيب والشاذ المثير للسخرية . الإبداع الفكري والأصالة ، والموهبة على المعاشية القوية المباشرة للظروف ، والقدرة على الانصاح التمهيري ، كل تلك الأمور كانت بالنسبة لهم المقاييس الجديدة للشعر الأصلي . غير أنه في الواقع لم يُنح للشعر الأصلي أن يتطور ويتقدم إلا عن طريق التضافر والتنمية المتألفة لمجمع الطاقات البشرية - وليست فقط للطاقات العقلية كما كان يرى هؤلاء الأدباء .

ولم يحظى في التلاقي مع ذلك التيار المصري كتاب نفس المنزلة التي ارتقت إليها ملحمة القصص الخرافية من الشرق التي طالما استلهم من كنوزها الفكرية الجملة أدباء الرومانتيكية الألمان الكثير من الاتجاهات والتحفيزات الفكرية : فعلى سبيل المثال كان إنشغال أوجست فون بلاتين Platen (١٧٩ - ١٨٣٥) بدراسة ألف ليلة وليلة حافزاً له على نظم ديوانه الشعري «العباسيون» (الذي ظهر عام ١٨٣٣) وعلى تأليف كتاب «الغزل الشرقي» . ونقل فيلهلم هاوف - الذي تأثر بفالتر سكوت Scott تأثراً شديداً - غالبية قصصه المشهورة إلى عالم «أسطحة الرمح الطائرة» و«الفلق خالف» . وبالمثل فإن إنتاج فريدريش هبل الأدبي «روبين» قد نشأ تحت تأثير «أغني كتاب صور في العالم» - والذي سماه هرمان هسه Hesse (١٨٧٧ - ١٩٦٢) فيها بعد «مجموعة الحكايات الخرافية Mithensammlung . وارتبط فيلاند Wieland في كثير من أعماله الأدبية بألف ليلة وليلة ، ومن

ومهد بذلك للواقعيين النافذين في القرن التاسع عشر الطريق الى عصر جديد من تاريخ الأدب كان بمثابة الحاقلة للحركة الرومانسية .

بفضل الحركة الرومانسية أصبحت حكايات شهرزاد مشهورة في أوروبا بين عشية وضحاها : السندباد البحار ، علي بابا والأربعون حرامي ، مصباح علاء الدين المسحور ، قصص هارون الرشيد وأبي الحسن ، ابن التاجر من عُمان ، كل هذه القصص وغيرها الكثير دأب على اختطاف أجيال من الأوروبيين مراراً وتكراراً الى مملكة السحر للخيال الشرقي . وفي حين أن ألف ليلة وليلة وُلّيت واعتبرت من وجهة نظر الأوروبيين على أنها التحفة الفنية الرائعة لأدب القصة العربية على الإطلاق ، فإن هذا العمل الأدبي لم يحظى في العالم العربي نفسه باهتمام يذكر رداً من الدهر . فقد كان المؤرخون والأدباء العرب يعتبرون حكايات شهرزاد من أدب التسلية بالنسبة للدهان من الناس . ولم يشرع الأدباء في العالم العربي أيضاً ينظرون الى هذه الملحة الشعبية العظيمة بعين الاعتبار إلا بفضل الاهتمام غير العادي الذي حظيت به في أوروبا . وفي لحظة كان فيها الأدب العربي وقتئذ واقعاً تحت تأثير أوروبا يبحث لنفسه عن صور تصويرية جديدة ، وإلهام فيها أسطورة الأدب العربي «الكلاسيكي الراقى» أمام مقاومة جيل فني مكافح من «الشعراء الأحرار» بدأ المرء في العالم العربي يرجع الى تراثه الثقافي الذاتي ويتبصر في تقاليده الشعرية الخاصة به ، التي تم تناقلها منذ زمن هارون الرشيد محفوظة في الذاكرة - أي محفوظة في القصص الخرافية والحكايات التي تروها الشعوب الشرقية . وفي غضون هذه العملية من التأمل في الماضي وجد أيضاً كتاب شهرزاد الذي لا حدود لعطائه الفني مكانة اللائق به بجزء من الأدب العربي ومدخل الى أروقة العلم والى معبر التراث الثقافي .

لقد فتق الشعر والخيال العربي شعراء الغرب واستوهم ما ينوب عن القرنين من الزمان . لقد كان هذا الشعر والخيال ملاذاً للجمع تسيطر عليه العقلانية سيطرة كاملة .

وعا أن أوروبا نفسها قد اندفعت الآن الى حدود التطور الاقتصادي التقني - وخلا أيضاً «العالم السلام» للشرق منذ

أعنت : Hann und Wintermärchen ، Goldener Spiegel ، Gulpenheh . وتذكرنا تراجيديا هاينريش هاينه «المنصور» باسبانيا الإسلامية ، أي بذلك العصر الذي تم خلاله في بلاطات الخلفاء في قرطبة وغرناطة واشبيلية أروع تكافل ثقافي بين الشرق والغرب .

الانتقال الى الواقعية

لقد كان إرنست تيودور أماديوس هوفمان E. T. A. Hoffmann مؤلف القصص الخرافية السرايوني العظيم - يقف فعلاً على العتبة الفاصلة بين الرومانتيكية المتأخرة والواقعية . كانت حياة هوفمان وأعماله متسمة بطابع تلك الفلسفة الثنائية بين ما هو واقعي واضح وما هو مبهم غامض . وقد أشاع هذا «الواقعي الخيالي» الذي كان يؤيد الوحدة بين الفن والحياة ، تلك الثنائية في فنه وحياته على حد سواء . وهكذا فقد كان يكتب هذا الانسان العنيد الذي كان يعمل مستشاراً لحكمة الاستئناف البروسية الملكية قصصه الخرافية الغريبة أثناء فترة عمله الرسمية ، بدلاً من أن يملأ الملفات بالفتاوى القانونية ، تلك القصص التي يذكرنا سحرها بأجواء ألف ليلة وليلة . وقد كان يقنن على نحو لم يضاهيه فيه أحد تصور الجوانب المظلمة للكيان الانساني وهبوط المعجزات على الحياة الواقعية وتحويل العالم الطبيعي الى عالم ما وراء الطبيعة - على نحو ما فعل على سبيل المثال عند تحويله أرشيفاريوس لندهورست A. Lindhorst الى سقر طائر في نوبة الرقابة الليلية العسكرية الرابعة في قصته الخرافية «القدر الذهبي» Goldener Topf . وكذلك في قصته الخرافية «إلكسبر الشيطان» وفي «إخسوة سراييون» Serapiensbrüder أثبت هوفمان أنه تلميذ نجيب شهرزاد التي تواصت في حكاياتها الليلية أيضاً أحداث مليئة بالأشباح ومثيرة للعجب ، واقعية وخيالية . وقد قابل هذه الثنائية في مستويات الأحداث عند هوفمان أيضاً إزدواج لمسارح الأحداث ؛ وهكذا فقد دارت أحداث قصصه في أتلاتنس وفي دريسدن ، في برلين وفي جتستان في نفس الوقت .

وعلى نحو مشابه لشارلز ديكنز Charles Dickens استمر هوفمان في تطوير العناصر الواقعية للرومانتيكية المتأخرة ،

زمن من يحمره بسبب وسائل الإعلام وتطور العلم ويراك
السياحة - فأننا نقب الآن عن «فانتازيا» جديدة ، عن
«قصص لانهائية» على أدياب الرومانتيكية الألمان كما فعل

هو جو فون هوفنزال

كان هذا الكتاب في حوزة أديب لك صبية ، وعندما لما العشرين واعتقدت أنها قد شبها عن العروق وأنشأ على طوار المعلومة تناولها في يديا مرة أخرى ، وعاد يسر خيال من جديد - لأفد نسبا في صاء قلبا وفي غرلة روحا ألقيا ألقيا لمسا في مدينة كبيرة جدا مغممة بالأسرار شديدة بالمخاطر مهيئة بالمرات - مثل معاد والصورة . كانت الميراث والتهديدات تخرج على نحو غريب ؛ كانا غصا بالرحمة في القلب وبالعلمة ، كان رتاع من الوشحة في أبحاثا ومن الضياح ، ومع ذلك فقد كانت تدفقا جارية وطفة قضا في طريق مليء بالمناجات ، دائما وبينه وبين امحلات وثروات وروايع عيقة وتشتخت في طفلة وبأولها نصف مفتوحة ونظرات تواردة شديدة في السور المحاللة التي تحيط بنا ؛ كيف كنا تنقص قضية هذا الأمير الذي ظل سبيلا مبدأ عن وطنه ، أو ذلك الآن لأحد النجار الذي مات أبوه والذي استلم لمخراث الحياة ، كيف كنا نتخيل أننا نشاهم !

ها هي الآن أصعب رجلا ، وهذا الكتاب يطالعنا للمرة الثالثة وأنا لا الآن أن تنقص حقيقة ما وأجنا سافعا على مداعلة وترديداً فيكلمات من الذاكرة ؛ وس دا لمي نستطيع أن نعالج وحدة شمرية متكاملة دون أن يفرض أغيراً ما تنفك من رومق وأغنى ما تحتويه من قوة ؟ إنا ليست مجرد مرامرات وأحداث ، إنا إيا عالم شمرتي - كيف يكون حالنا لو أنا لم نعرف هوميروس أو Homer إلا عن طريق الأعادة لنقص مرامراته من الذاكرة ؟

ها يتعلق الأمر بقصيدة اخترت في تعليمها بل ريب أكثر من واحد ؛ يبدأ أي نبدو كما لو كانت قد نبئت من نفس واحدة ، إياها وحدة متكاملة ، إياها عالم من كافة الجوده . وبدا أنه عالم . قد يبدو هوميروس في بعض الحالات ناقيا إلى ذلك عدم اللون وغير سادج . هنا يوجد تمدد الزمان ويعدُّ غزير ، فيض خيال وحكمة كويمة فطيلة ؛ ها توجد وتطفح لا نهاية لما وأحلام ، أقوال حكيمية ، ألقاكية ، تجاوزات القصة ، أسرار ؛ هنا تتوَّج أبسل صبور الرومانسية مع أقوى مظاهر التبولونية في وحدة واحدة . إنه ليس بالصور في أعماقنا الذي لا يتنبأ لسه أن يتعبط ؛ كل ما في أبحاثنا يبدأ فيه حبب الحياة ويتفدَّى للاستناج إليه .

إنا تنقص خرافية تلو قصص خرافية ، وهي تنبئ إلى حد البساطة ، إلى حد السفك ؛ إنا مفارقات وألقاكية أو ألقاكية غريبة شديدة ، وهي تصل إلى حد المنزلة ؛ إلى حد الحفة . يريه أنه في جوده الأمور كلها لا تكون السياحة شوهاء ولا الفاتحة غريبة ولا يكون لكل إناشاً ؛ تنوب سانية كلمة جميع الكل . إياها فيهم لفصيدة ملها الضوء في صور ومجوزات ، ملها اللون على لوحات تزيان من Tizian ، نحن نتحرك من أمسي عالم إلى أحسن عالم ، من الخليفة إلى الحلاق ، من الصائد الرقيق الحال إلى السيد الذي للمستلح بالناحية - إيا إناشية تلك التي تعبط سا ، ونفعا ونحملا بوحه عريضة رفيقة ؛ نحن بين أشباح ؛ بين حمرة وصاريت وعسى مرة أخرى بدأنا بين أمهليا . وكما ألقنا القراءة ، كما استسلمنا يمتد إلى هذا العالم ، تنوء في وسط أكثر العسر سذاجة وإليها ، الذي يقضي بنا إلى المسج اللحن للغة - إنا هذه اللغة لم نصل من أجل التجريدية ؟ كلقاها الانتمالية وكلقاها اللاتية كلقاها أولية ، شامقة ، حياة أبوية ضياء ، على وعارمة مدوية صحرى ، حالات خلاصة شورية جارية جنسية وساذجة ، موحونة بلا مبالاة وبقرية نحن هنا نامون عن مثل هذا العالم بما يحيط به من لؤواع ، وبغداد والبحيرة ليستا قديم خيال الإزاء . لا نقفم هنا أن أرفع مستوى : أنا لا أصر لا يمدون أن يكون شيئا بالتفنى خلال الملهم ، بل أنا تنقص خلال مسلم هذا اللغة الشاعرية

هو جو فون هوفنزال Hugo von Hofmannsthal في مقدمته
للسنخة الكاملة من الف ليلة وليلة التي قام بترجمتها إينو
ليتلان . ونورد في المقال التالي خلاصة لتلك المقدمة .

السادة سيم عالم فحسي من قديم الأزال ، نسج في أحواته للامتنان والشميلون ، وتكون فيه حيوانات الغاية والصعرا ؛ نهاية مثل الآداء ، لشيوخ والوث وهك لا يكون تادراً أن يفقد الصمم والتفصيل ، بل والعيشة تادمة نظراً لنحس من حللنا على عالم أجياد شمر بشوش ، أحل على أسرار أعظم غطورة .

في الوقت ذاته ينتسج الكل برحانية شمرية تنفقا بنا بأشد التشف من أن نبدأ الإدراك الحسي إلى بل إلى العلم الكامل . شمر داخلي والله ووجوه لا ينشئ كل هذه الأشياء الحسية ويحل عن الوصف . وفوق هذا المسج من الإنسانية والجوافية والتبطنية يتبدد دوماً فيبر السياه الفحسي الساطع أو تترأى أطراف السياه الفقدسة المرحسة بالتيجور . وكس قوي زكي طيل تهباً خلال كل شيء المشاعر الطاهرة البسيطة الأبدية والمعلومة والتفوي والوده في الحب .

ولكي نطالع فصحة من ألف صفحة ، ها كقمة من قصة على شار والرمزة الوفية ، وفي لمة لا أود أن أتمسك بها بأي نص بدع في أعظم كتب وقاراً ، ومضمون القصة يتكدد بكحو لا شيء . الميبدأ يوجد أن يخلص بميراثه التي اختلص منه روح مجوزة شمرية . وقد استكشف الميبدأ البيت المأجورة فيه حببته ، وبيوتها عطلت متصف الليل تحت الشك . وقد تعاقب على إشارة معينة ما كان عليه إلا أن يندب عنده غير أنه كل عليه أن يتعطل ليلة أخرى فقيرة . وهنا يتبدد يوم عريق في غير وقته المناسب ولا يمكن مقلوته . كأنها قد بدتته القضاء والقدر من الظلام مثلاً حر كته . «وهالك غلظة التماثل» ، كما يقول النص دوراح في سيات عريق - عيب هو ، هو الذي ما كانت تنفض له عين أدياب . إني استأدري أي مقطع من هوميروس أو دانته أود أن أضماها للفتارة بجانب هذه الأسطر : هكذا من اللاتينية إلى مفارعة عطلطة الأحداث تنصلي رجلا الله مثل القمر عندما يدع فوق حالة السياه ؛ ولكن ما عسانا أن نقول عن أقوال الحكمة على أسنة الطيور والميوانات الأخرى ، وعن الأحاديث السمية المثرى للندارى الساحرات وعن الأقوال «الطورية والحفايا التي تس تغلف القلب ، التي كان يصبها آباء على فراش الموت وملوك حكاية تسترو في آفاق الشباب ، وعن الحمار الذي لا يصب معينه الذي كل ماتفوق يتخون به عن أنفسهم معانكهم وعيهه هيامس على حد سواه ، يرفوونه عن كلهم ، يمدوهه إلى الوجود . معلما بأنظروا بظهور معلمتهم بأن يمدون عنيا بأقوال المرامر أو بكتلات الكتب المقدسة ، كان الفحي يرفع عن مسه وعظه والشعاع قنوزه ، والظان عطلته . وملما تكون التكتلات الطاهرة الورقة لشعراء مترددة على كل لسان ، مثل الهوام الذي يكون كل فرد نصيب فيه ، تكون الريلة شمرية من كل الأشياء فوق آلاف من المعاني التشابكية لحلق إيديتهم في نفاة وحرية تفتش عنيا بكتلات خالدة الجمال باقية على المعبر .

هذه التماثرات التي يثل كل مضمونها تنطلمت ديبوية إلى أقصى حد ومماثلة مبهمة ومنممة مطلفة ، لا نظير هناك إلا من أجل التفصا السلبية التي ترزف فوريا - ولكن ما قية هذه التفصا وما قيتها بالنسبة لنا لو إياها لا تكن نامة من عالم زاغر بالحياة ؟

خلال علم من الزمن هذا العالم الزاخر بالحياة والمغمم بمسرة لانهائية ، بمسرة جياشة طولية لا تحواها الأيام ، تتكاثر الكل بلا نظام وفصل الكل بضه إلى نفس ؛ الخليفة إلى الصياد رقيق الحال ، إلى الطيائل إلى الكمال المزال ، سيدها وحسن والجمال إلى التسلل الأحدهم ، جسدا إلى جسد ، وروما إلى روح .

رحيل هاينريش بل ، حامل جائزة نوبل للآداب وفاته مرجع

هاينريش بل : شاعر ، واعظ ، ماذي ، وحام

آلام ألمانيا بعد الحرب

صحيح أن الآلام من الذين بدأوا الحرب وإن هبط هو أول من بدأ بقصف المدن . لقد رأيت مدب «Amiens» الواقعة في شمال فرنسا مدعرة تماماً . ولكن ما لا يريد أن يسميه الكثيرون ، هو أن الناس - هانويور أو غير هانويور - قد ذلوا كثيراً في مثل تلك الظروف . بهم عاشوا - ولم الأرباب البائس - البشع - العذرة الأند قسوة ، ذلك التي امتدت من يوليو (أغسطس) ١٩٤٤ إلى نهاية الحرب ، ولكنوا في نفس الوقت من الرقص والشرب ومن مناجاة النساء والاشتماع بالفرح متواصلة عديدة .

ما هو الالتزام ؟

إن كل كاتب صفاي بالطبع ، وحتى إن كان إلهاماً متفقا تدفعه عالية ، فهو صفاي بالضرورة . ن أجل الدائم حول الشكل والضموم وحول الالتزام والانفراط يدعو للقلق الشديد . والآلم هو التمييز بصدق عن وسط أو عن مشكلة أو عن عالم معين دون الالتزام بالمشكلات البورجوازية من حيث الشكل . والمقال يجب التأكيد على أنه لا يمكن أن يصي الخنوي وحده قيمة للعمل الأدبي .

الثقافة ليست وحدها المحفدة بالنسبة للكاتب

إن كل كاتب صفاي بالضرورة ، وأريد أن أؤكد على ذلك لأن هناك أسئلة متفقون جداً وحلولاً شهادات عالية ، إننا ليسوا قاصدين على الكتابة ، كما يتصور علم أحياناً ترويح الالتزام القدير . ومن الأكد بأن الفيلاد الجاسية التي حصلوا عليها بتعظيم كلاً عن إياه ذلك . ويشهد تاريخ الأبداع دوماً بأن الثقافة ليست وحدها المحفدة بالنسبة للكاتب .

الأولى «Das Brot der frühen Jahre» . فكل ما يكتبه «بل» يصدر عن طبع رقيق . حتى عندما يكره . إذ أن «بل» ، مثل كل مسيحي حقيقي ، كان يعرف أيضاً أن يكره ، حتى عندما تقدم به العمر وأصبح أكثر ليناً . وقد كان يوجه تلك «الكراهية» إلى الذين حاولوا عن الصواب ، ولكنه لم يظهر أبداً تكبراً أو شفقة غوهم ، بل شفقة بالأحرى . إنه الموقف نفسه الذي عرفناه عند ذلك المادى العظيم الآخر في الأدب الألماني ، ذلك الملوح بيسده برجاه ، أعني بترتولد برشت Bertolt Brecht .

هذا التشبيه يبدو وكأنه ينطوي على كثير من المغامرة والتعسف ، لكن «بل» كان يقبله بأقصى الجدية . فقد كتب في إحدى رسائله الرائعة الأخيرة :

«أعترف أنني لم أطلع على معظم ما قيل في أو ما كتب وصوّر عني - وذلك ، ببساطة ، لأنني لا أريد أن أنشفل كثيراً بنفسي ، ولا أريد أن أقع كليا في المرض الذي أصاب عصرنا ، أعني الموت بالألنا . فهذا القدر من الجاه والشهرة قد يسبب بسهولة

في الناس عشر من يوليو (أغسطس) ١٩٨٥ توفي الكاتب الألماني هاينريش بل Heinrich Böll . حامل جائزة نوبل للآداب ، وكان ذلك في بيت فيه من بوردايم Bornheim قرب Bonn ومنه عملية جراحية في الرئوية المسومة .

وهاينريش بل ، الذي نشرته آخر رواية له (نساء أمام منظر نهرى Frauen vor Flußlandschaft) بعد وفاته بقليل ، بدأ الكتابة سنة ١٩٤٩ بعد أن كان أسير حرب لدى الأمريكيين . وألم ما طلع أفعاله الأدبية تلك الصبغة التي مر بها إبان الحرب العالمية الثانية وموقفه النقدي من الأوضاع التي سادت في ألمانيا بعد الحرب . وقد ظل هاينريش بل ثلاثة عقود مواكباً لتاريخ د بعد الحرب في ألمانيا الغربية نقداً وبداعاً واستمرارية لم ينفرد له لمعلم لدى معاصريه . كذلك داب التزامه العميق بالقضايا العسكرية والأخلاقية جعل منه مثلاً مكرماً وروحياً لشعب ، الذي كان قبله يكتب بلته ، كما جعل منه ما يشبه «صوت الأمة» .

هذا الدور الكبير الذي لعبه أكنه احتراماً وعية عظيمين ، وبالأخص في الخارج ، وفي الوقت نفسه ألب عليه الأسماء في وطنه وألمانيا . والمعلم بالذكر أن هاينريش بل هو من المعاصرين الألمان للثلاث - إلى جانب زميله وصديقه غونتر غراس Günter Grass الذين ترجمت بعض أعمالهم إلى العربية .

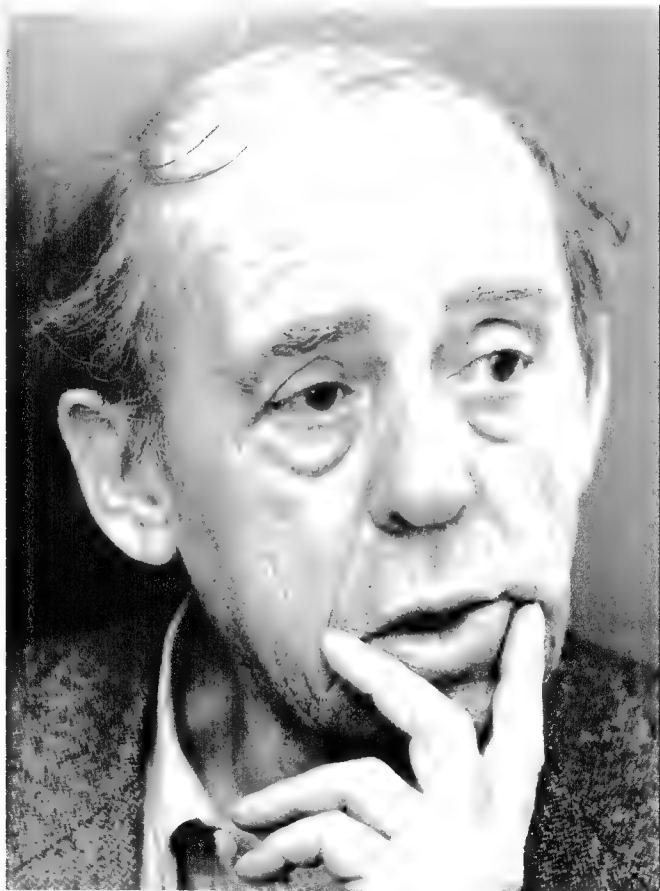
يقدم في المثال التالي الألقاب التالية مريتش ولفنس Fritz Raddatz حياة هاينريش بل وأعماله الأدبية .

ومدة قبل ذلك أن توفي القراء بعض أول «بل» الملمة التي يورث في اللغة العربية التي أجراها علي بنسي فينتزن Rand Wintzen والتي نشرت في كتاب صدر عام ١٩٧٨ عن دار «العقبة» (السلي) في باريس تحت عنوان : الثقافة الألمانية .

لقد كان بل Böll ما كره أن يكون : صغير الأمة . وتلك «عبارة ثقالة» ، كما كان يستحبها . وكان ، في الوقت ذاته ، يقول عن نفسه : «إخالف أنني لم أعرف بعد ، فأنا أقدر دقاً أقل من قدري ، وأحياناً فوق ما أستحق .»

كيف يمكن هذه الأمور أن تأتلف ؟ وبكلام آخر : هل ينطوي هذا التناقض على سر «هاينريش بل» ؟ فقد كان الرجل سر تنبع منه سلطته . وفي غرة صدمتنا المحاضرة تجاه وفاته المبكرة ، عن سبعة وستين عاماً ، يمكننا أن نؤكد : إن سره كان الحب .

كان هاينريش بل Heinrich Böll يحب الناس . سواء كان ذلك في منمناته الثرية الفريدة ، مثل (هليس في عيد الميلاد فقط) (Nicht nur zur Weihnachtszeit) أو في شخص رواياته الكبيرة : «آدم» (في «أين كنت يا آدم ؟» Wo warst Du ? Adam ?) و «ليبي» (في «صورة جماعية مع سيدة» Gruppen-bild mit Dame) و «هنز» (المهرج في «منظرات مهرج Ansichten eines Clowns) و «هيدفيك» (في «خبر السنوالت



مناً من الجنون . . إنك على حق فيما يتعلق بعبارة «مادي» ، غير أنه علينا أن نحدد مفهومنا للعادة : فاللغة مادية . كذلك فالكانن الذي نسميه الله أصبح مادياً . أي بشرأ بالتحديد (هذا في مفهوم «بل» المسيحي) . كما أن ما يتبادله العاشقون مادي أيضاً . لا شك أن هناك أوجه شبه برشت ، أكثر مما يعتقد بعض المذممين على برشت وما يستطيعون ادراكه . غير أني لست بورجوازي ، ولا من أصل بورجوازي ، بل أنا مزيج من البروليتاريا والبهيمية والبورجوازية الصغيرة . «إني تمب ، يا عزيزي ، مريض ومتهوك . لا أقوم بأعالي العادية إلا بمشقة . النهوض صباحاً يبدو لي صعباً ، ومع ذلك أنض : إني حشاً أقف على رجلي» . فلا ننس أني مُلغس بالميتافيزيقا - لا أدري متى وبواسطة من . كان يمكن لبرشت أن يتفهم هذا .

في موسكو قال لي أحد الأذكيا الروس الكثيرين (وهو ما يزال حياً) : - كان برشت آخر الكثوليك ، وأنت قد تكون أول الكتاب البروليتاريين - . وفي هذا الكلام بعض الحقيقة . أما في بلدنا ، فإن المجالات الاخلاقية والاجالية والسياسية لما تزل منفصلة جداً بعضها عن بعض .»

واليوم ، بعد وفاته ، نقرأ تلك الرسالة وكأنها هي سيرة ذاتية ووصية في آن معاً . فهي تنظم كل العناصر التي تكونت منها أعمال كاتب عظيم : تدوين دنويي غريب ، ميتافيزيقا علمانية كلياً ، قرب شديد من الشعب ، واهتمام مطرد بالقضايا العامة التي لم يكن يتطفل عليها ، بل كان ملزماً بها ، ثم الصرامة النابعة من وجدان حي .

من هنا قوة الاشعاع في أدبه ، فهو أدب يحتوي على شيء يتوَلد من أمي الروح ، كما سماه مرة ، وتطوي عليه أعمال مؤلفين قليلين : تلك الجذرية (الراдикаلية) النزبة التي عندها ماركس الشعب عندما ذكرنا أن مفهوم الجذري إنما هو مشتق من الجذر . ولكن جذر الانسان هو الانسان نفسه ، فما كتبه «هاينريش بل» لم يكن قط مجرد أدب .

في كُتب «بل» يجب أن يمشي شيء ينعش الناس . لقد جعل لهم اللغة قابلة للسكس . فالتطابق النادر بين هويي المؤلف وأعماله أمر يتخطى التجربة اللسانية الذوقية . إذ أن أعمال «بل» حافظت دوماً على التوازن بين ما يؤثله القارئ من تخيل منطاري وما يقدّمه له المبدع .

لقد حدّد «بل» نفسة هذا اللاتن في فنه عبر جلته الشهيرة المدهشة : «ماذا ؟ أنا وليس «غراس» !» وهي الجملة التي قالها

في مرقأ يوناني صغير حين فاجأته أنباء حصوله على جائزة نوبل . فالذين يفتنون قناتين مغلقتين كباراً في أدب ما بعد الحرب العالمية الثانية هم بالاحرى پاؤل سيلان Paul Celan أو أرنو شميت Arno Schmidt أو أوفه جونسون Uwe Johnson . أما «بل» فقد اعترف له بدور الاخباري الناقد الذي يؤرخ وقائع الجمهورية الاتحادية ، وبدور المراسل من بلد الجوع وإعادة البناء ، بلد المعجزة الاقتصادية وإعادة التسلح ، وأخيراً بلد قاعدة البرشن Persching التي تظاهر ضدها في موتلانن Muttlangen هذا الحامل لجائزة نوبل . لقد كان «هاينريش بل» بلزك الجمهورية الألمانية الثانية . فكما أن هذا رستم يجمع الجشع في ملكة البورجوازية ، فإن «بل» أخرج لنا مشهد الرقصة الهائلة لمعالجة التكالب على الإثراء بعد الحرب الثانية .

هذا هو المفهوم الأصح لفن «هاينريش بل» : إنه مخترع . إنه لا يخترع ، بل يجد . إن مادته مركبة بما هو موجود أو متذكر . رواياته وأقاصيصه تخيا من حافظ معين . وذلك ليس بحثاً عن الزمن الضائع ، بل عن الزمن المخبون . الزمن : إنه ما فعلنا . فهو ليس مقولة نفسانية ، بل تاريخية . و«بل» يرى أن بشرية بلا ذكرى هي كابوس ، لفقداننا الحسن التانيخي . وهكذا ، عندما قيل له في مقابلة : «أنت لا تفهم الكتابة سيرة ذاتية بقدر ما تفهم سيرة ، أي مشاركة في التاريخ المعاصر» ، أجاب بكلمة واحدة : «نوم» .

«هاينريش بل» ليس كاتباً سيكولوجياً ، ورغم روعة نثره ، فهو ليس من أعحاب الرهافة الأسلوبية . إنه متظاهر ، فهو ، عبر أسئلته ، يعرض ضروب الاعوجاج والظلمة ، كما يعرض شرارات الأمل الضئيلة ، قوة كتيبه ليست متأصلة في سبره البني الفردية أو في خلفه القنذ الفردي العميق الأغوار ، بل في البرهان المتكرر على أن المجتمع هو الذي يدفع الفرد الى حافة الهاوية ويرى أن الفرد هو الوجود الأم بعينه . «الفرد» عبارة عن شتيمة في الاستعمال اللغوي الألماني . بطلته ليني Leni ليست مدام بوفاري Madame Bovary ، إنها بالأحرى «الأم الشجاعة Mutter Courage المعاصرة : ليست شخصاً يستحق شفقتنا ، وإنما هي شخصية تعرض علينا الحراب الذي أبزله بها الزمن .

وهكذا نراه ، حتى في مقال عن توما الاكوبي ، يستعمل هذه التقنية الدراسية في التظاهر التالي : «كم أود لو أسأل واحداً مثل توما الاكوبي : عن القنابل الذرية ، عن التسلح وعن

المتحدر من العقل (Ratio) الروماني . ولا ريب أن هناك «عقولا» أو - أكثر من هذا الذي ارتصيده عقلا لـ .

إن تسميتنا هذا الكلام مقالاً ليست صحيحة تماماً . فهذا النص ينطوي أيضاً على أنصوفة . وهذا هو سرّ شائ في فن «هاينريش بل» : إن تصوره للانسان يستتبع نتائج أدبية مباشرة كلياً .

... ماذا يقول «بل» ؟ ... هذا ما كان يسأله ، أو يصرح بلّ به ، أو يقوله أو يكتبه المساجون والمبعدون والمنفيون والمظلومون الذين كان يساعد في أغلب الأحيان ، إنسانيته القويمة ، وعناده أيضاً حافظاً لديه على هذا الشيء البراق المناقق الذي نسميه «يوطوبيا» . «يجب ألا نخاف الذهاب بعيداً . . قلها مرة . . ولن أدع أحداً يقنعي بترك الأمل في هذه اليوطوبيا» أي يوطوبيا ؟ «مجتمع لا نفعيّة فيه ولا طبقات .» حالم ؟ أيضاً ولا شك ! لكن ، من لا يعلم يتجنّ . ومجتمع لا يعرف الحلم إلا كلمة ميوّبة في أبواب الدعاية هو مجتمع مهيد بالجنون . و«هاينريش بل» يذكّر نفسه فقط بهذا الأمر ، بل ذكرنا نحن أيضاً . ونجاحه العالمي كان علامة توقنا جميعاً الى الأبل . لكنه الآن أمل تشوبه الظلال .

تحقيضه أو زيادته ، عن مسيحية الأحزاب المسيحية ، عن المهدرات والانتحار وضغط الانتاج والتلفزيون والعائلة وتجديد النسل ، وعن الارهاب والعيان والقرود والثورة . فهو ، على أي حال ، قد وافق على السرقة لسدّ الجوع : - في حال الفقر المدقع تصبح الأشياء جميعها ملكاً عاماً . لذلك يحقّ للذي يعاني فقراً من هذا النوع أن يأخذ من مال الآخرين لمعيشته ، إذا لم يجد من يتبرع له بذلك . والسبب نفسه ، فانه يحقّ أن يؤخذ شيء من مال الآخرين ويعطى صدقة ، وذلك يفترض بالطبع إنعدام طريقة أخرى لمساعدة المعوز . أما وإذا أمكن أن يتم الأمر دون خطر ، فالأفضل أن يحصل على موافقة الملك أولاً ثم يتفق على المعوز . -

«السؤال هو : هل الفرد وحده هو المضطرّ الى السرقة لسدّ الجوع ؟ أو ليس هناك شعوب بكاملها محتاجة الى السرقة بدافع الجوع ؟ ومن له ، «دون خطر» ، أن يسأل «سوموزا Somoza أو الشركات المتعددة الجنسية ، ولو صدفة ؟ الأرجح أن الاجابات عن استلقي متضمنة باختصار في أعماله الكاملة ، التي يجب أن نتقضاها فكرياً . إن العقل الذي بوي عليه والذي اشتراطه الى حدّ مفرط ، العقل المتسوسطي الطبع ،

الكتاب والنفقوس الأثقال يحملون ثابوت هاينريش بلّ وم . ليو كويليب (الأول على اليسار) ، جوتتر جراس (الثاني على اليسار) ، جوتتر قارلاف (الثاني على اليمين) وفي المؤخرة أبناء هاينريش بلّ .



في الأدب والأخلاق والسياسة

شيء غير قابل للتبرير أو الموضوعية، أعني به الذوق. إنني لا أعرف منطقة أكثر منه وعورة. فكل منا يهرف، ولا شك، أناساً قد تربطه بهم صداقة، وقد يجد ذوقهم، فيما يتعلق باللوحات الزيتية والأثاث والكتب، فظلياً، ولكنه، رغم ذلك يقدر طابعهم ويحبهم. والعكس صحيح أيضاً، فقد نعرف إنساناً لا نشعر بأي عيب في ذوقه، ولكننا نستفزع طبعه.

إن من كان، مثلي، يفصل من برشت Bertolt Brecht شعره، فعليه أن يعرف أن هذا الشعر هو أيضاً برشت بكامله. وغوته Goethe، هذا الكلاسيكي الذي لا خلاف فيه، لست أدري ما يتصوره أولئك الذين قد ينصحون أولادهم بقراءته باعتباره شاعراً من السقوط المعاصر. إن من ينصح بقراءة «الأنساب الحفارة» Die Wahlverwandtschaften و«آلام فرتر» Die Leiden des jungen Werther و«فلوست» Faust، لا بد أن يكون مدرّكاً لما يفعل، والا فإنه لم يقرأ غوته قط. فالفوضى والفواجع والألم والقلق والحيانة الزوجية والانتحار، جميعاً تختفي وراء هذا النثر الذي يحوز بسهولة مفرطة على الرضا والإعجاب.

ثم تأتي، بالأخص، إلى «كلايست» Heinrich von Kleist الذي يُقرأ، والحمد لله، في جميع المدارس والذي كان راديكالياً وكان أحياناً يعمل في دوائر الدولة. إن من يجعل أولاده يقرؤون «كولهااس» Michael Kohlhaas و«كيتشن» Das Käthchen von Heilbronn والمسرحية الفكاهية الرائعة «الجزء المحطمة» Der zerbrochene Krug لا يشجعهم كثيراً على الإيمان بالسلطة. هؤلاء الكلاسيكيون خطرون. فكيف يكون القاص أقل مدعاة للحد من كتاب المقالات؟

(. .) نذار إذن من القصاصين وحق الكلاسيكيين منهم! وهذه الدعوة إلى الحدز موجهة إلى جميع الأحزاب السياسية.

الأمر الذي لم أفهمه، فلم يستطع بالطبع أن يؤذني، هو محاولة الفصل بين من يسيئ بالقاص وبين الآخر - الذي يكتب المقالات والنقد أحياناً، ويقف خطيباً أحياناً - وذلك بالرغم من كون المقالات والنقد والحطاب هي أدب أيضاً.

وعندما نتكلم عن المتابع والأخطار، وأعود إلى ذاتي، أجد أن القاص أخطر وأكثر متاعب من الآخر. لذا لا أفهم هذا الفصل بينهما، وأترك مهمة ذلك إلى متخصصي الآداب الألمانية. أني أجد أقصوصة تسيل بسهولة على طريقة موسيقى موزارت تقريباً - كما هي الكثير من أقاصيص همنغواي - وتلبس بالعدم أو اللانسي، تسوق أمامها وتجعله يثب ويقفز، أخطر بالنسبة إلى من كثير من المقالات النقدية السياسية.

لا يمكن أن أستوفي هنا كل الأخطار الناتجة عن هذا النوع من سوء الفهم. يمكنني أن ألمح إليها فقط، باعتباري على التفكير ومنهياً على الخطأ، حتى عند قراءة الكلاسيكيين. فسوء الفهم هذا يحقق القديم، ضارب في الأعقاب، وقليلة جداً في الحالات التي كان فيها الناس كباراً وأسياداً إلى حد أنهم أن يثابروا بحموية على أيديولوجيتهم ونظرتهم إلى الحياة، وأن يقفروا، رغم ذلك، فوق الحدود، فيمترقوا بالفن والأدب اللذين لا يوافقان أيديولوجيتهم. وهنا يخطر ببالي ثلاثة: والتر بنيامين Walter Benjamin وروزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg والثالث - وإيساغي الله إن ذكرت اسمه - هولنين، الذي وضع بعد الثورة لائحة بالكتاب الروس الذين يجب ألا تُمس تأثيلهم، وقد كان «الرجعي» دوستوفسكي واحداً منهم. وعندما تفكر كيف نامل هاينريش هاينه Heinrich Heine أو أوسيتسكي Carl von Ossietzky في بلادنا، فلربما أمكن أن نأخذ لينين مثلاً يحتذى.

في تقدم النتاج الذي نسببه النتاج الفني، هناك دور يلعبه

وهناك واحد آخر نسينه ، «جورج بوشنر» Georg Büchner الذي لا يكاد يرقى الشك إلى أنه إرهابي ، حتى أن البحث يجري عنه على هذا الأساس ، لتودون تكريمه ، وهو الذي الذي يلعب على جميع المسارح ويُقرأ في كل المدارس ؟

(مقتطفات من كلمة «هاينريش بل» عندما أصبح «مواطناً فخرياً» في مدينة كولونيا في ٢٩ نيسان/أبريل ١٩٨٣) .

(. . .) فأنا ، على أي حال ، أرى أن «غراس» Günter Grass في «طليلة الصفيح» Die Blechtrommel أخطر منه في «يوميات حلزون» Tagebuch einer Schnecke . ولا يمكنني أن أتجنب الضحك عندما تتماذى البورجوازية في حب صاحبها «توماس مان» Thomas Mann محطيم البورجوازية .

إنني أكرر : الخطر في الأبحاث والمقالات النقدية هو ما يكمن فيها من شعر ومن تعبير لغوي لا ينضوي تحت لغة الرثابة السياسية . ويخطيء من يكرّم كاتباً معتدلاً يرضى عن كل شيء . إذ أنه لم يند سوى ممل ، ذلك الكاتب الذي تريدون تكريمه .

* * *

Heinrich Bölls letztes Gedicht

Für Samay

Wir kommen weit her
liebes Kind
und müssen weit gehen
keine Angst
alle sind bei Dir
die vor Dir waren
Deine Mutter, Dein Vater
und alle, die vor ihnen waren
weit weit zurück
alle sind bei Dir
keine Angst
wir kommen weit her
und müssen weit gehen

Dein Großvater

8. Mai 1985

قصيدة هاينريش بل الأخيرة

الى ساماي

نأني من بعيد
يا حلفتني الحبيبة
وعليتنا أن نذهب بعيداً
لا نخافي

كلهم حولك
كل من كان قبلك
أمك وأبيوك

وكل من كان قبلها
من زمن بعيد بعيد
كلهم حولك
لا نخافي

نأني من بعيد
عليتنا أن نذهب بعيداً

جذّك

٨ مايو ١٩٨٥

هاينريش بل وكاترينا بلوم

الانتفاضة الطلابية - (المحرر) وعندما بدأ اتهم الحركة الطلابية بالإجرام ، ترى بل مرة أخرى يقف في صف الشباب وينادي بالتعقل ، سابعاً ضد التيار .

(من كتاباته بهذا الصدد المقال الذي أثار هجة كبيرة «هل تريد أولريكه ماينهوف الرحمة أم أنها تريد أن تؤمن على حريتها - (المحرر) .

تعرفت عليه شخصياً في تلك السنوات وبدأت صداقتنا أيام كتابته «شرف كاترينا بلوم الضائع» ، فأراني النص وقررنا في حينه أن نخرج الرواية للسنا . وأمضيت مع مرجريت فون ترونا⁽¹⁾ أياماً طويلة في بيته نكتب ثلاثتنا السيناريو ، كان بل B&L شعلة من الحيوية . كتب مناظر إضافية وأجزاء من الحوار خصيصاً للفيلم وأعاد رسم الشخصيات بدقة أكثر ، بل أعاد تأليف بعض الأجزاء من الرواية . وبعد أن كتبنا السيناريو ناقشناه مع بل ، لم نناقش كل منظر على حدة وإنما تكلمنا عن الشخصيات وركزنا على تطورها كأفراد .

وبرزت من خلال تلك النقاشات مناظر جديدة أعدنا معالجتها مرة أخرى وأضاف بل نصوصاً جديدة لها ، كان عملنا مركزاً لا على إيجاد هيكل السيناريو أو تأليف الحوار وإنما كان الهدف منه إعادة وصف الشخصيات ، تحويلها من شخصيات أحادية البعد إلى شخصيات ذات أبعاد متعددة . واكتشفنا خلال هذا العمل المشترك أنه بالإمكان رسم إنسان بأكله بسطور قليلة .

مونيكما ماورر :

ما هو الفارق بين العمل الروائي وبين السيناريو ثم الفيلم ؟

شلوندورف :

هناك الكثير ما يعبر عنه العمل الروائي بطريقة مجسمة يصبح ثقيلًا عندما يتحول إلى صورة في الفيلم ، فالفيلم له لفته الخاصة

يعد فولكر شلوندورف من أهم المخرجين السينمائيين الشباب في ألمانيا الاتحادية وقد ذاع صيته كمخرج لروائع الأدب العالمي . (طبعة الصفيح - عن رواية جونتر جراس والي قدمناها في «فكر وفن» عدد ٤١ ، و «البحث عن الزمن الضائع» لمارسيل بروست و «الحرب والسلام» لتولستوي و«الفني تورلي» لروبرت موزيل .

هذا وقد قام شلوندورف بإخراج رواية هاينريش بل «شرف كاترينا بلوم المفقودة» في عام ١٩٧٥ ، وبمدها بعام واحد ألف بل قصة ساخرة بعنوان «أنتيجونا اليوم» كتب على أساسها شلوندورف سيناريو الفيلم المسمى «ألمانيا في الحريف» ، ثم تعاون الاثنان عام ١٩٨٢ في كتابة سيناريو «الحرب والسلام» .

ويتذكر شلوندورف بل «كأب روجي للفيلم الألماني الجديد» الذي تابع تطوره عن كتب ابتداءً بأعمال المخرج جان - ماري شتراوب وحتى إنتاج مارجريت فون ترونا وفرنز هرتزوج . كما أنه شارك بفعالية كبيرة في إخراج فيلم «كاترينا بلوم» . وكان شلوندورف قد التقى بل في بيته في جبال الأبنيل قبل وفاته بأسابيع قليلة ، ومحدثنا هنا عن هذا اللقاء الأخير وعن ذكرياته عن هاينريش بل .

شلوندورف :

بدأ لي بلباسه الريفي والبهريه شبيهاً بأخيه الذي يحترف التجارة . إن وفاته بالنسبة لي - بالنسبة لنا جميعاً - هي كآلو كنا قد فقدنا أباً . فقد كان بل في الخمسينات ، في ذلك الزمن «بلا آباء» ، هو الوحيد الذي رفع صوت العقل ، والوحيد الذي سبح ضد تيار «الحرب الباردة» .

كان بل هو الوحيد الذي كنا نؤمن بصدقه ، فكلما لم تكن مواعظ وإلما كانت مشوية فلما يروحه المرح .

أما أنا شخصياً فاكشفته وأنا في الخامسة عشرة من عمري عندما قرأت رواياته الأولى . وبمدها ، أي بعد ١٩٦٨ (عام

(١) مارجريت فون ترونا من أجيال المخرجات الألمانيات ، اشتهرت بفيلمها «الزمن الضائع كالرماس» و «الجنون الساطع» ، وهي متزوجة من فولكر شلوندورف

التي تتطلب صوراً لا توجد في النص المكتوب ، تكتسب قدرتها التعبيرية في الفيلم . يجب تجاهل النص الأدبي ، فهمتنا ليست أن نعطي الكتاب حقه وإنما أن نعطي الواقع حقه .

مونيكما ماورر :

هناك وسائل مختلفة يُنقل بها العمل الأدبي في الفيلم بحيث يبرز من خلاله ، أو هل تظن أنه من الممكن إخراج عمل أدبي والتظاهر بأنه غير موجود كنص مكتوب ؟

شلوندورف :

لا يمكن تصور هذا الفيلم بدون رواية بل ، فإن ما تنتجه هو في نهاية الأمر عالم بل وليس الواقع المباشر . فكل الشخصيات هي شخصياته ، وهذا هو منبع قدرتها التعبيرية .

مونيكما ماورر :

هل تظن أن بل قد كتب الرواية وهو يأخذ في عين الاعتبار أنها ستتحول إلى فيلم ؟

شلوندورف :

لا أعتقد ، أن العديد من المقومات في قصته كانت تنسب في الماضي إلى التكنيك السينمائي مثل الاسترجاع والكولاج المركب من المقالات الصحفية والمهاضر . ورغم أننا كنا الثلاثة - بل ومارجريت وأنا - قد قررنا الالتزام بأسلوب مستقيم ومباشر في السرد ، حتى أن المتفرج يذهب في رحلة استكشاف مع كارلينا ويتحول معها من مراقب إلى متأثر ذاتياً وهي نفس التجربة التي مر بها بل والتي قد نر بها جميعاً .

مونيكما ماورر :

ما هو العنصر الأساسي في فيلم كارلينا بلوم ؟

شلوندورف :

يكن العنصر الأساسي في إيراد الأساليب التي تنتهجها الصحافة مع تصوير دور الجهاز البوليسي والكنيسة في مجتمعنا . إن ما أردنا التعبير عنه في منتصف السبعينات هو هستيريا الانهيار بالإرهاب ، تلك المطاردة المجنونة التي ماثلت مطاردة الساحرات في القرون الوسطى والتي أصبح بل نفسه إحدى ضحاياها .

لم يكن بل يحب الحديث عن معاناته في ذلك الوقت ، لعدم رغبته في الظهور بمظهر الضحية . لكنه قد قلبي حقيقة من

هذه الأحداث التي تعطي صورة عن الجو السياسي في تلك السنوات .

مونيكما ماورر :

كيف عاش بل تلك الفترة وهل استطاع أن يتغلب على آثارها ؟

شلوندورف :

لم تكن من عادة بل أن يفرق بين الحياة العامة والحياة الخاصة ، بين الكاتب والانسان . فقد كان إختلاقاً إنسانياً أو إنسانياً أخلاقياً ، وعندما وضع هو نفسه في قصص الانهيار رأى في ذلك دليلاً على موقف الصحافة والساسة الذي يبرأ بكل القم الإنسانية ، وهو موقف كان دائماً موضع نقده . إن بل لم يكتسب شخصيته القديسة بعد تلك التجارب المرة ، فبالرغم من مشاركته في كتابة فيلم «ألمانيا في الخريف» و «الحرب والسلام» ، إلا أنه كان على قدر ما من التحفظ والبعد الساخر . إن استعداد بل الدائم للمشاركة في الصراع كان نابهاً من موقفه الإنساني وليس من موقع النشاط السياسي .

مونيكما ماورر :

هل كان بل مهتماً بالفيلم في حد ذاته كوسيلة للتعبير الفني ، أم أن مشاركته في العمل كانت مشاركة إنسانية وسياسية وأدبية ؟

شلوندورف :

يذهب أبطال بل وبالنزوات بطلاته إلى السينما لمشاهدة الميلودراما المؤثرة التي تستحوذ على مشاعرهم حتى البكاء ، ويبل نفسه كان يحب هذا النوع من الأفلام ، حتى أن الفيلم الذي أخرجه شتراوب عن قصته «البلياردو في التاسعة والنصف» كان في رأيه جافاً جداً . بعد مضي عشر سنوات على إنتاجه اعترف بل بأنه فيلم متميز من الناحية الفنية لكنه لم يؤثر فيه . مع مرور الزمن تمت علاقته بالفيلم وأهتم به كأداة للتعبير الفني ومن الملاحظ أن رواياته اللاحقة تصلح كلها للسينما .

مونيكما ماورر :

هل هذا هو السبب في اهتمامه بالسينما بأعمال بل ؟

مونیکا ماوير :

ما هو تأثير بلل السياسي على الفيلم الألماني ؟

شلوندورف :

علمنا بل - نحن نخرجو الأفلام - أن نصف الشخصيات البشرية وليس فقط الأفكار والبرامج ، كما علمنا أن نصف الأشخاص في حياتهم اليومية العادية ونبرز بذلك البعد السياسي الذي يتضمنه وجودهم . وهذا بالضبط ما أراد إظهاره في روايته « كاترينا بلوم » و « صورة مجموعة مع امرأة » . كان بل يقول إن بلادنا قد خُزيت مرتين ، المرة الأولى بالقنابل في الحرب العالمية والمرة الثانية بالاحتمت والأسفلت وبدلاً عن بلد ومجتمع إنساني أقاموا صحراء من الأسفلت حطمت العلاقات الانسانية .

مونیکا ماوير :

ان كاترينا وليبي وشخصيات أخرى خلقها بل ، هن ثائرات ورافضات ولكن بلا إيديولوجية ؟

شلوندورف :

لم يكن بل من المؤمنين بالأيديولوجيات ، لا بالديانة التكنولوجية ولا بالماركسية ، مثله مثل جيل بأكله من عاصرو النازية وأرادوا الابتعاد عن الأيديولوجية . ولعل هذا ما جعل أعماله غير مرتبطة بمصر معين ، فشخصياته صادقة دائماً في كل زمان ومكان . إنني أود أن أضفه بفوضوي مسيحي ، وكثيراً ما قال لي : « عندما يترك شخص ما الفريق الذي ينتمي إليه ، فهذه بداية إنسانيته » .

مونیکا ماوير :

هل يطابق الواقع في ألمانيا الاتحادية كما يصفه بل ما يعبر عنه فيلم « كاترينا بلوم » ؟

شلوندورف :

علينا أن نفرق بين الفيلم وبين الكتاب . فمادة القصة تتغير عندما نضعها في إطار في آخر . أردت أن أتفادى أسلوب التقرير الصحفي ، مثلاً حاولت ألا أعرض نظرية معينة . فإخراج أفلام واقعية يتطلب بالدرجة الأولى التكتيف والتجرد وحتى التصنع بشكل أو آخر ، أي خلق واقع سينمائي قائم بذاته ، نفس الشيء كما لو كنا نحاول أن نتذكر كيف



أنجيلا فينكلر في دور كاترينا بلوم .

شلوندورف :

ان المزيج الذي يمتاز به أعمال بل من بساطة في الفهم والتزام بهذه البساطة ووصف دقيق للعالم من حوله ، هذا كله درس مفيد لنا كمخرجين ، فليست مهمتنا هي التخيل وإنما دقة الملاحظة . إن بل كاتب كبير فعلاً ، فهو لا يحلل المشاكل لكي يعبر عنها وإنما يصف الشخصيات الصادقة في المواقف الصادقة ، بينما لم تتمكن نحن على الاطلاق من أن نعبر عن تصوراتنا بهذا القدر من البساطة . وهذا الوصف الدقيق للحياة الآن ذو تأثير سيامي ، قد يكون أكبر صدى من الادعاء السياسي العالي الصوت .

كانت الأوضاع في السبعينات... وكاترينا بلوم هي في نظري أخت ليني يناليفر الصغرى في رواية «صورة مجموعة مع امرأة»، فاحداها - وهي ليني - تعيش استمرارية التاريخ الألماني من النازية مروراً بفترة ما بعد الحرب وحتى المعجزة الاقتصادية والحركة الطلابية. بيتا تمايش الأخرى - كاترينا - واقعا المباشر في ألمانيا الاتحادية والاتجاهات الرجعية السائدة فيه. سلوك كاترينا مثله مثل سلوك ليني «لا يتفق والزمن الذي نحيا فيه»، ولكن قصتها تؤثر فينا تأثيراً مباشراً، فكاترينا شخصية روائية تجذب المشاهد إلى التعاطف معها والتشبه بها.

إنها مثل ليني - مليئة بالشفقة والمحبة والكرامة الإنسانية والشرف، وكلها قم تضطر شيئاً فشيئاً إلى التنازل عنها. وتحاطر كاترينا مثلها مثل ليني - في مواجهة الاتهامات الملتفة وتشويه سمعتها محاولة إنقاذ كرامتها، فهي تحمل حملنا جميعاً بتحقيق تلك الإنسانية الخالصة، حلم لا وجود له إلا في الأفلام.

مونیکا ماورر :

ما الذي تفقده - يفقده جيلنا وتفقده ألمانيا الاتحادية بوفاته بل؟

شلونودورف :

بالتأكيد كلاهما يفقد شخصاً يهتمل إتهما لم يكونا يستحقانه، فهو الوحيد الذي كان جديراً بالثقة على مستوى المجتمع كله. وليس من قبيل المصادفة أن رواياته الأخيرة لم تلق نجاحاً كبيراً، فقد كانت أقل لفتاً للأنظار من التي سبقتها. كثيراً ما ينظر الجمهور إلى الأمام، إلى المستقبل، في محاولة لنسيان علاقته بالزمن وبعو الماضي.

مونیکا ماورر :

وما خسارتك أنت شخصياً بوفاته بل؟

شلونودورف :

خسرت أولاً وقبل كل شيء صديقاً ورفيق طريق كان يشاركني في التظاهر ضد الصواريخ النووية المتوسطة المدى وفي سبيل السلام. لم يكن بل ليفرق بين الإنسان الروحي والإنسان السياسي، بل أنه كان يحكم على السياسة من خلال عقل الإنسان وروحه. هذا كان مقياسه. إن أخاه النجار حرق في ماهر جداً، بل أيضاً كان كذلك هو الآخر: الفارق بينهما أن الأول يعرف كيف يعالج الخشب، بينما كان بل يجيد التعامل مع الكلمات والضمير.

شرح لرسوم الصفحتين ٧٢/٧٣.

صفحة ٧٢: - (الأعلى) - الصورة الأولى: مراسل جريدة (Zentung)، توغز (دبتر لازار) بحثاً عن الأثر المصحفي، ينسك، وبتحتم عربة العناية الفائقة، حيث كانت والدة كاترينا بلوم محتضر، ويملمها يا حصل لأنتها.

صفحة ٧٢: - (الأسفل) - الصورة ٢: تقفشي بيت كاترينا بلوم من طرف الشرطة.

صفحة ٧٣: - (الأعلى) - الصورة ١: مضايقة كاترينا بلوم من طرف الصحفيين قبل الاستجواب.

صفحة ٧٣: - (الأسفل) - : هايغريش بل مع مارغريتا فون تروتا وألجيلا فييتكر والديتا.





نادرة للحطّ من اخلاقيّة العمل

«أشعر بأني راح»

تعبير وجه السائح زداد تامة . لم يعد يقوى على كبت السؤال الذي راح - اذا جاز التعبير - يحدّ بتفجير قلبه : «ولكن ، لِمَ لا تبحر إذن ؟» .

يجيء الجواب سريعاً ، مقتضباً : «لأنّني قد أبحرتُ صباح هذا اليوم» .

«كان جيداً الى حدّ يفنّيني عن الابحار ثانية . كان في سلاي أربع قطع من السرطان البحري ، وقد اصطدت أكثر من دزيتين من الإسقمري . . .»

يقوم الصيد الآن ، وقد صفاً أخيراً ، ويربت على كفتي السائح مطمئناً ، فهو لا يرى داعياً لتعبير الممّ في وجهه ، رغم كونه بالفعل تعبّر قلق مؤثّر .

«وحقّ عندي ما يكفي غداً ويعد غد» . يقول هذا كي يروح عن نفس الأجنبي . «هل تدخن واحدة من جيجاري ؟» «نم . شكراً» .

توضع السجّارة في كل من الفمين . «كليك» خامسة . الأجنبي يجلس على حافة القارب وهو يمز رأسه ، يضع آلة التصوير جانباً ، فهو الآن بحاجة الى كلتا يديه ليدعّم كلامه . «لا أريد التدخل في شؤونك الخاصة ، ولكن ، تصوّر أنك تبحر اليوم مرة ثانية أو ثالثة أو حتى رابعة ، وتصطاد من الإسقمري ثلاث دزيتات أو أربع أو خمس أو حتى عشر دزيتات . . . هلاّ تصوّرت هذا» .

الصيد يمز رأسه موافقاً .

«سوف يمكنك أن تشتري محرّكاً بعد سنة على الأكثر ، وقارباً ثانياً بعد سنتين ، وبعد ثلاث سنوات أو أربع يمكنك أن تحصل على زورق شرعائي» ، وبواسطة القارين والزورق الشرعائي يمكنك أن تصطاد أضفان ما تصطاده الآن - ويوماً من الأيام سيكون لديك زورقان شرعائيان ، سوف . . .»

الحماسة تخطف صوته برهة . «سوف تبني محزن تبريد صغير ،

في ميناء على الشاطئ الجنوبي من أوروبا ، رجل فقير الثياب مستلقٍ ، يوم في قارب صيد له . سائح أنيق الزيتي ينتهي لساعته من وضع فلم جديد في آلة تصويره ليأخذ صورة للمنظر ببساطته الساحرة : سماء زرقاء ، بحر أخضر وأمواج مسالمة بذراها الثلجية البيضاء ، قارب أسود ، وقبّة صيد حمراء . «كليك» . ومرة أخرى «كليك» . ويما أن كل الأشياء الجيدة مثلثة العدد ، وأن التأكد هو الأسلم ، فمرة ثالثة : «كليك» . الطلقة الجافة ، المنقّرة ، والمعادية تقريباً توقظ الصيد المهوّم ، الذي يقوم مليئاً بالنماس ، ويحاول ، أن يصطاد علبه بجائره . ولكن ، قبل أن يجد نبيته ، كان السائح المتحمس قد حلّ له علبه تحت أنفه ، غير أنه لم يغرز السجّارة في فمه بالضبط ، بل وضعا في يده . وثأني «كليك» رابعة ، صادرة من علبه الكبريت ، لتنهى الجملة الهوجاء .

عبر ذلك الإفراط في الجملة النشيطة ، وهو إفراط يصعب قياسه ويستحيل إثباته ، نشأ حرج منغلّ حاول السائح - الضليع في لغة البلد - أن يتجاوزه بالحديث :

«سيكون صيدك اليوم موفقاً» .

هزة رأس سلبية من جانب الصيد .

«ولكن قيل لي أن الطقس مناسب» .

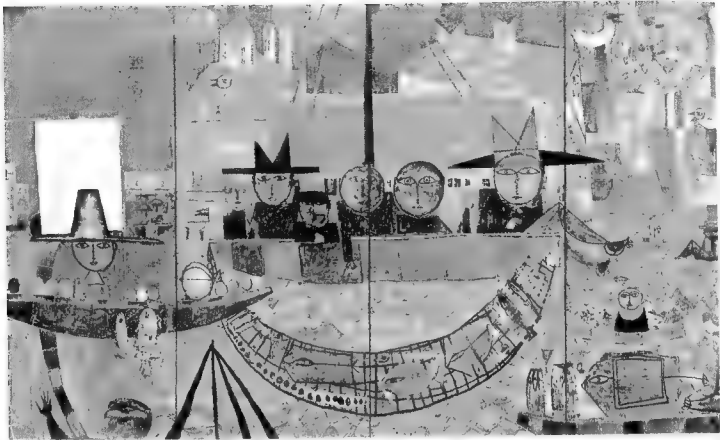
هزة رأس إيجابية من جانب الصيد .

«لن تبحر إذن ؟»

هزة رأس سلبية من جانب الصيد ، وتوتر متصاعد من جانب السائح . لا ريب أن مصلحة الرجل الفقير الثياب تشغل باله والخوف من الفرصة المفقودة يحزّ في قلبه .

«آه ، لست بصحة جيدة ؟»

وأخيراً ، ينتقل الصيد من لغة الإشارة الى لغة الكلام المحكيّ حقاً : «إني على خير ما يرام . لم أكن في حياتي كلها أفضل مني الآن» . يقف ويمطلي كلّما يريد أن يعرض قوّة جسمه الرياضي :



فريتس كونيغ: السمك المجهب ، ١٩٥٠ .

«ثم» ، يقول الأجنبي بحماسة هادئة . «ثم» ، يمكنك أن تجلس مطمئناً هنا في المرفأ ، وتقوم في الشمس - وتتمتع بمنظر البحر الرائع .»

«لكن هذا بالضبط ما أفعله الآن !» وتابع الصياد : «أجلس مطمئناً في الميناء وأقوم . لكن طلقفتك أزعجتني .

وبالفعل ، بعد تلك الأمثلة ، غادر الساحل المكان مهموماً . فقد كان هو أيضاً يعتقد ، فيما مضى ، أنه إما يعمل ليوم لا يعود فيه بحاجة الى العمل . ولم يبق في قلبه أثر للاشفاق على الصياد الفقير الثياب ، وإما بعض الحسد .

وقد تبي معملاً للسمك المدخن ، وفيما بعد معملاً للتعليق ، وتحوم بطائرك العمودية الخاصة فتكتشف نجيمات الأسماك وتعطي التعليلات إلى زورقيك باللاسلكي . يمكنك أن تحسرك حقوق اصطياد السلمون ، وأن تفتح طعاماً ، وأن تصدر سرطان البحر إلى باريس دون وسيط - ثم ... مرة ثانية ، يعجز الأجنبي المتحمس عن متابعة الحديث . يهر رأسه والأسي بلا قلبه ، وفرحته بالعطلة تكاد تضع ، وينظر الى المذ المتقدم بسلام أمامه ، حيث تقفز الأسماك الطليقة بمسرح «ثم ...» لكن التهج يطبق على صوته من جديد . يدق الصياد على ظهره ، كما يفعل المرء وبطل فرقة بريقه . «ثم ماذا ؟» يسأل بصوت خافت .

الفن التركي في العهد العثماني

حدث احتكاك بينها وبين شق الحضارات المتقدمة والأديان النبيلة . وبعثناهم للإسلام أخذ العثمانيون أيضاً جوانب من التراث العربي - الفارسي . وكان الأخذ بصور الحضارة البيزنطية أصعب ، ذلك لأن استيعاب تاريخ المصور القديمة ودول الغرب المتطبعة بالمسيحية كان محدوداً . ولهذا السبب لم يقتبس العثمانيون سوى تلك العناصر البيزنطية التي كان من الممكن إدماجها في حضارتهم الإسلامية .

كانت علاقات الأتراك مع الغرب مطبوعة على مدى قرون بطابع النزاعات الحربية . ولم تكن الاتصالات الدبلوماسية التي أقامتها الامبراطورية العثمانية مع عديد من دول أوروبا الوسطى والغربية تخدم سوى المصالح الاقتصادية . وكان الجزء غير العثماني من أوروبا لا يزال يُسمى «دار الحرب» ، وكان يُنظر إلى أهله - الذين كانوا يُستثنون إفرنجيه - على أنهم كفار .

لواء من الخزف Kütahya ، القرن السادس عشر الميلادي .



تشهد المعارض الممثلة للفن التركي ولثقافة العهد العثماني المغامة في فرانكفورت وإسن على الاهتمام المتزايد بالصلات الثقافية بين الشرق والغرب . ويرجع الفضل في المستوى الرفيع لهذه المعارض إلى ما قُدِّمَ إليها من نُحف أثرية مُعارة من مصادر خاصة وعمومية من أوروبا وأمريكا . ولأول مرة تضع تركيا ذاتها معروضات أثرية تعبرها خارج حدودها تحت تصرف تلك المعارض . ويقدم دليل من جزئين ، أخذت منها الصور المبينة هنا ، إلاماً ممتازاً بكل واحدة من التحف المعروضة . كما تساهم مقالات لاختصاصيين مشهورين في التزويد بمعلومات واسعة التفرع عن هذا المجال الثقافي . وإليها المرة الأولى التي يُقدَّم فيها في أوروبا معرضٌ بهذه الصورة الشاملة .

كانت الدولة العثمانية (١٢٨١ - ١٩٢٢) تضم امبراطورية عظيمة تترامى أطرافها عبر ثلاث قارات . ومع نُضي توسعاتها

صعدان من الخزف ، القرن السادس عشر الميلادي .



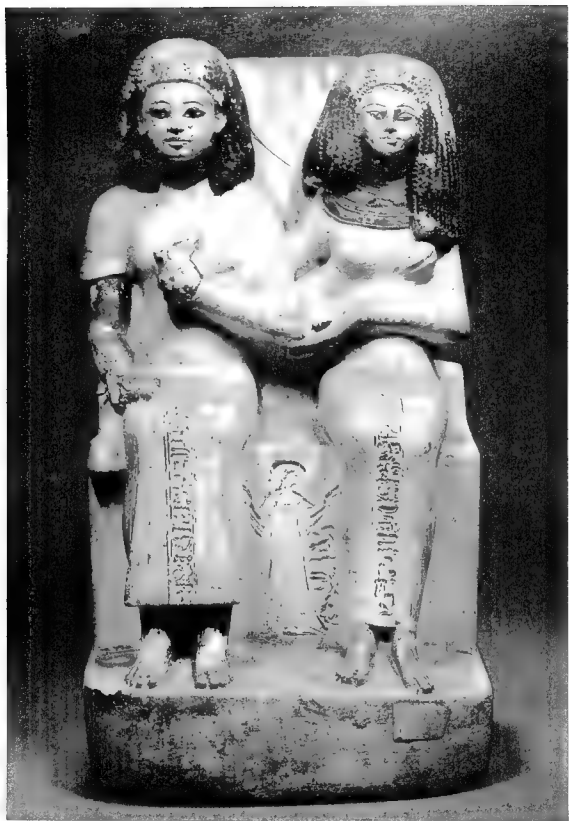


محمّد بای : السلطان محمد الثاني الفاتح .



صحن خزفي من أزنبك (القرن السادس عشر الميلادي).

نخّال، فرعونى (الأسرة المالكة ١٩، الامبراطورية الجديدة ١٢٥٠)، من التّأثيل التي عرضت في معرض «نقرايتي الجميلة» الذي نظم سنة ١٩٨٥ في ميونيخ، في برلين وفي <1> هلمسهايم .



غير أنه سرعان ما بدأ يظهر إهتمام واضح بالثقافة الأوروبية في أوساط الطبقة الراقية المحدودة التي بدأت تتكون تدريجياً . ويرجع السبب في إثارة هذا الانتباه على وجه الخصوص أيضاً الى غنائم الحرب - لا سيما من مناطق البلقان - وإلى الهدايا المقدمة من السفراء ، وكذلك الى تقارير المفوضيات أوساط الطبقة الراقية المحدودة التي بدأت تتكون تدريجياً . ويرجع السبب في إثارة هذا الانتباه على وجه الخصوص أيضاً الى غنائم الحرب - لا سيما من مناطق البلقان - وإلى الهدايا المقدمة من السفراء ، وكذلك الى تقارير المفوضيات والاتصالات مع المسافرين .

قام محمد الثاني (الملقب بالفاتح) ، والسني استولى على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، بحفظ العديد من الآثار التذكارية المسيحية في قصره . وقد عي أيضاً بالديانة المسيحية ودعى البطريق جناديوس شولاريوس ليؤلف مُصعلاً للمبادئ المسيحية تُرجم الى التركية : فقد كان خليقاً بالطبقة الحاكمة أن تكون على علم بربايها المسيحيين . وفي إبان حكمة استدعى محمد الفاتح فنانون إيطاليين الى بلاطه . وفي عام ١٤٨٠ - أي قبل وفاته بسنة - سمح للرسم الفينيسي المشهور جنتيله بليني Gentile Bellini أن يرسمه ، في وقت كان الباب العالي في مناوشات حربية مستمرة مع السلطنة الحاكمة للبنديقية بشأن جزر مختلفة في البحر المتوسط ، كان كلا الطرفين يتنازعان على ملكيتها .

كان محمد الثاني - الحاكم الذي جمع بين السطوة والذوق الفني والاهتمام بالثقافات الأجنبية - في وسعه أن يمسى أمر الدين الاسلامي بدم عمل صور طبق الأصل من الانسان . غير أن ابنه **بايزيد الثاني** - الذي كان ورعاً شديد التدين - قام ببيع الأعمال الفنية الأوروبية في السوق . وبطريق الصدفة آلت صورة بليني الشهيرة لـ محمد الثاني الى المتحف الوطني في لندن . حاول ليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci مثلاً بلا طائل أن يعرض خدماته على بايزيد الثاني لبناء كبرى فوق خليج القرن الذهبي . بيد أن بايزيد كان يود أن يستخدم لهذا المشروع الفنان العظيم ميخائيل لانجلو ، الذي أراد خليفته سلم الأول أيضاً أن يستدعيه كرسام بالباب العالي . أمر ابراهيم باشا - الصدر الأعظم لسلطان الأول - بأن تُعرض

في حلبة سباق الخيل التاتيل العروضية لمرقل وديانا وأبولو التي أعتنيت من مدينة بادوقا ، مما كان مدعاة للكثير من القيل والقال . وبعد موته اختفت تلك التاتيل دون أن يُعثر لها على أثر . ومع ذلك فقد كان هناك دوماً معجبون بفن الرسم الأوربي ، الذي لم يبدأ يكتسب تأثيراً بطيء إلا في القرن الثامن عشر . وقد تثير هذا الوضع حقاً في القرن التاسع عشر وفي عصر الإصلاحات - التنظييات - بدأ السعي الى الاعتناء الوثيق على النشاطات الحضارية الأوربية والتقدم العلمي - التنغني للغرب . ومع ذلك فقد كانت لازال هناك حاجة الى تخطي التحامل على الدين وعلى التقاليد الحضارية المخالفة . أما العلوم التطبيقية المتعلقة بتكنولوجيا الشؤون الحربية فقد كانت مطلوبة منذ القدم . تعامل العثمانيون في غزواتهم الحربية على سريعا مع الأسلحة النارية منذ زمن مبكر الى حد ما . ولذلك فانهم استخدموا مهندسين ألمان وعمالاً لسباكة المدافع ابطالين وبجربين . وبفضل مساهمتهم (تقديم العون والحيرة الفنية) استطاع محمد الثاني في ذلك الحين عند محاصرته للقسطنطينية عام ١٤٥٣ من إستعمال المدافع . وكان هناك اهتمام بالغ من قبل الأتراك أيضاً بمجالات العلوم الطبيعية والجغرافية والفلك والطب . كذلك أدخلت طباعة الكتب الى الامبراطورية العثمانية عام ١٧٢٧ بواسطة مجري إردت عن دينه .

في القرن السابع عشر - إبان فترة حكم محمد الرابع - شاعت عند العثمانيين آلات موسيقية أوروبية - وعلى وجه الخصوص آلة الكمان . وعناسة ختان أحد الأمراء تماقد الباب العالي مع فرقة أوبرا إيطالية . وفي النهاية نجح جيوفاني دونيتشي ، الذي كان يشغل في القرن التاسع عشر منصب قائد الفرقة الموسيقية العسكرية للسلطان ، في إدخال الطابع الموسيقي الغربي على نطاق أوسع لدى الحكم العثمانيين . وعلى العكس من هذه العناية بالموسيقى لم يكن هناك لدى العثمانيين حتى أواخر القرن التاسع عشر إهتمام يُذكر بالعلوم والفلسفة والآداب الأوروبية .

تقع فترة ازدهار الفن والثقافة العثمانية المستقلة بشخصيتها في القرن السادس عشر . في ذلك الوقت كانت الفتوحات العثمانية في الغرب قد انتهت وأصبحت أراضي الدولة في حكم المُستعَبَّة . وهنا إنصبَّ إهتمام الحكم على تعمير وتحجيز القصر

السلطاني في إستانبول والقصور القائمة في بورصة وأدرنه - والتي كانت لازال القصر الصفي للسلطان . وفي هذا السعي نحو التعمير الحضاري كان يوسع الحكم العثماني الرجوع الى فن العمارة السلجوقي ، الذي كان قد تطور منذ القرن الحادي عشر في الأناضول .

ومن أهم أنماط البنائية الجوامع والأضرحة ومستراحات القوافل والقصور التي تطور طرازها تحت التأثير الفارسي . وتمتع بالشهرة والقرى حتى يومنا هذا المآذن الأبرية المبنية من الآجر والتي ما زالت موجودة أيضاً في أفغانستان والمهند . والمميزات الفوذجية للمآذن السلجوقية - العثمانية هي الزخارف الفنية المشكّلة من الآجر المطلي بطبقة زجاجية لامعة ملونة أو المؤلفة من فسيفساء القيشاني . وامتد الثراء الزخرفي كذلك الى المباني العادية غير الدينية ، حيث كانت توجه عناية خاصة الى زخرفة البوابات .

لم تلعب طرق القوافل عبر الأناضول في العهد العثماني سوى دور محدود . فقد انتقل مركز الثقل التجاري الى إستانبول والبحر المتوسط . وكان من نتيجة ذلك أنه لا توجد حالياً أو لم تكن توجد في الماضي سوى شواهد قليلة على الفن العثماني . واشتمل الفن السلجوقي الكبير - أي الذي يقصد به اندماج الفئتين السلجوقي والفارسي - أيضاً أشغالاً معدنية وخشبية وفن السجاد وكذلك فن النسيج . وقد واصلت هذه التقاليد تطورها وطراً عليها تغيير . وهكذا فقد اختفت على سبيل المثال العناصر الشكلية في الزخرفة .

نشأت في فن الحرف أنماط وأساليب فنية جديدة تملأ . ولقد كانت إزنيق وكوتاهيا في ذلك الحين مصانع مزدهرة ظلت تعمل وحظيت بشهرة عالمية . وفي العهد العثماني تميز قيشاني إزنيق بوجه خاص الى تحول سريع في الطراز . فقد سادت منتجات القيشاني البيضاء الزرقاء المزخرفة على الطراز الصيني حوالي عام ١٥٠٠ ، وطراز القصور الولبية لمجموعات القرن الذهبي من عام ١٥٢٠ حتى عام ١٥٣٠ ، نموذج ذو ألوان زاهية في أواخر القرن السادس عشر . وهذا

التطور ممّز للفن العثماني الذي اكتسب أسلوب التصور الأوروبية - وهو أسلوب فني ذهب في سماء الى الازدياد والعبقرية مذهبا فنياً عالي التطور . وأقوى الولع بتكسية البنايات الكبيرة في إستانبول كلية بالبلاط ، والذي بدأ يرسم في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، في نهاية الأمر الى توقف إنتاج البلاط تلماً في القرن السابع عشر . نظراً لأن محاجر الصلصال في إزنيق قد إستنفذت بالكامل . ولتعدّ مصانع الديباج والحمر الشهيرة في بورصة وأمازي من المصانع الوطنية للكاليات ، حيث كانت تتنافس على جودة وفراء ألوان منتجاتها التي كان حرمها يستورد من إيطاليا . وكان الباب العالي يُعَم على أتباع مختلفين للسلطان بأردية حريرية ثمينة كلابس تنرفية .

كان المتعهد الرئيسي للفن العثماني هو السلطان ووزارؤه . وكان اذا وُجد نقص في الشّاع الديوين والمعلمين الحرفيين يتم إستدعاء بّنائين ونقاشين وعمال غزل وعمال في الصناعات المعدنية وخياطيين ونحاتين من مصر وإيران أو من دول البلقان الى الباب المالي . وأضيفت الى المنتجات المحلية والأشياء الفنية التي إغتنمت أثناء الغزوات الحربية العديدة لحف فنية وبضائع إستلاكية يدوية الصنع أخرى كثيرة . وقد تخفض عن هذا التوجه نحو الغرب بصورة المتعددة في نهاية الأمر الطراز المعماري الجديد من القصور العثمانية الذي ظلت النماذج الأصلية منه الشرقية والغربية - أي السلجوقية والأوروبية - متميّزة جلية حتى يومنا هذا .

كان الالتقاء الصناعي اليدوي المطلق هو الفرض المسلّم به للفن العثماني . ويبدو هذا الالتقاء بوضوح في القرنين السابع عشر والثامن عشر على وجه الخصوص في المخطوطات اليدوية والرسوم المنمنمة وتجليد الكتب ورسومات المصاحف التي تمثّل ذرى راتعة للإبداع الفني الشرقي بوجه عام وفيها تستمر حضارة وعقيدة الاسلام في ديومة شجر الزايرين الغربيين .

علم الآثار المصرية وآفاق التسعينات

مؤتمر علماء الآثار الدولي الرابع المنعقد في ميونيخ عام ١٩٨٥

وعلى وجه الخصوص المعالجة الالكترونية للمعلومات .
وشملت مناقشة الأولويات في بادئ الأمر إعداد وسائل
تعليمية أساسية ، لاسيما في مجال اللغة المصرية القديمة . إذ يعتمد
علم اللغة المصرية القديمة اليوم على قاموس للغة المصرية القديمة
تم تأليفه منذ خمسين سنة ، وبالتالي فإنه لا يأخذ في الاعتبار
النصوص التي تفوق الحصر والتي اكتُشفتُ وتُشرت على مدى
نصف القرن الأخير . هناك نقوش وأوراق بردي لا حصر لها
مكدسة في المتاحف أو مدونة في المعابد والمقابر بمصر لم
يتم نشرها حتى الآن . ولا بد أن تُتَوَّن الرموز الهيروغليفية
التي تربو على خمسة آلاف والتي تتألف منها النقوش .

ويُمثِّل الكشف عن الآثار وتدوينها في مجلات وترميمها في
مصر نفسها ، أي البحث الميداني ، أولوية من نوع خاص . إن
الوضع الحالي في مصر ، التسم بنمو سكاني وتوسع عمراني
سريع - خاصة في المناطق الأهلية بالسكان - وزيادة في
التصنيع ، يهدِّد بصورة لم يُعرَف لها مثيلُ ثروة التُّصَبِ
التذكارية العتيقة الموجودة في مصر . إذ هيأت مصلحة الآثار
المصرية برئاسة مديرها النشط الدكتور أحمد قُذري في
السنوات الأخيرة الأسباب التنظيمية المساهمة فعالة من جانب
فرق من علماء الآثار المصريين والأجانب . فقد باشرت
مصلحة الآثار المصرية في السنوات الأخيرة على نطاق واسع
بترميم الآثار المعرضة للخطر ، وأولت المتاحف في مصر عناية
خاصة . وأنشئت متاحف إقليمية في كل أرجاء الدولة ، قلَّت
من التركيز المألوف في الماضي لكل الأشياء الأثرية المكتشفة في
متحف الآثار المصرية بالقاهرة وأعطت صورة جديدة للشعب
حول ماضيه .

ويجناب المتاحف الإقليمية العديدة من أسوان حتى
الاسكندرية يقوم مشروع كبير لإنشاء متبئين جديدين
أحدها لتحتضن بلاد النوبة في أسوان والثاني للمتحف القومي

لم يرَ علم الآثار المصرية ، أي علم مصر القديمة ، النور إلا منذ
١٦٣ سنة . ففي عام ١٨٢٢ وُفِّق العلامة الفرنسي «جين
فرانسوا شامبليون» في حل رموز الأحرف الهيروغليفية التي
طواها النسيان منذ ما يقرب من ١٥٠٠ عام وقدم بذلك
المفتاح لفهم التاريخ والحضارة والديانة المصرية القديمة .
وعقب ذلك بثلثين سنة تولدت دعائم علم الآثار المصرية في
فرنسا وألمانيا كفرع جامعي ، واليوم يتفرع للاهتمام بهذا
العلم حوالي ٦٠٠ عالم بالجامعات وال متاحف ومعاهد الأبحاث
في ثلاثين دولة من دول العالم . وتقوم ١٥٠ بعثة كل عام في
مصر بالتنقيب عن الآثار والمساحة والتوثيق والترميم في
حقل الأبحاث الأثرية .

في عام ١٩٧٦ فقط إنعقد لأول مرة في القاهرة مؤتمر دولي
لعلماء الآثار المصرية حضره حوالي ٣٠٠ عالم ، لكي يتبادلوا
وجهات النظر في المشاكل والمشاريع المشتركة . وإنعقد مؤتمر
علماء الآثار المصرية الدولي الرابع في ميونيخ في الأسبوع
الأخير من شهر أغسطس (آب) عام ١٩٨٥ . وألقي ما يربو
على سبعمائة مشترك ثلاثمائة محاضرة علمية في سنة أيام
وناقشوا في عشرين مجموعة تضافيات وتجاربهم . وقد ظهر
بوضوح أكثر من الأعوام السابقة أن علم الآثار المصرية اليوم
لم يمد فرعاً واحداً ، بل إنه يتل حشداً من التخصصات
الفرعية المختلفة ، يربط بينهما جميعاً موضوع الدراسة المشترك
والحقبة الزمنية والنطاق الجغرافي لأبحاثنا . ومع ذلك فإن
علماء الآثار المصرية مصممون على ألا يَتَرُطوا في وحدة هذا
الفرع .

وقد تركز نشاط المؤتمر ، الذي انعقد تحت شعار «علم الآثار
المصرية للتسعينات» ، على مستويين هما : أولوية البحث خلال
الأعوام القادمة وإستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة ،

للمحاصرة المصرية في القاهرة . وشكّلت من أجل المشروعين هيئة دولية من المتخصصين بإشراف منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) والمجلس الدولي للمتاحف (الإيكوم) ، حيث تقوم هيئة الآثار المصرية حالياً بتطبيق توصياتها عند التصميم الهائي للمتحفين . ويتوجب على الجمعية الدولية لعلماء الآثار المصرية أن تقدّم نتائج أعمالها وخبراتها إلى المنشآت التنظيمية والمشروعات الطويلة الأجل التي قام الجانب المصري بإعداد إطارها .

ولا يكون الاستخدام الفعال للطاقة العلمية المتاحة ممكناً إلا إذا استعان علم الآثار المصرية بالطرق والأساليب الحديثة التي قامت الفروع الأخرى بإنجازها . ولذلك فقد وجه المشتركون في المؤتمر اهتماماً خاصاً إلى قسم الحاسبات الالكترونية الذي يُعنى بالتدوين والمعالجة الالكترونية لنصوص الآثار المصرية وقُدِّمت عدة طرق لكتابة المبرولوجونية بواسطة الحاسبات الالكترونية وتم شرحها في التطبيق العملي . وتستغل المعالجة الالكترونية للمعلومات بدرجة متزايدة أيضاً في إعداد فهرس الكتب والمراجع ، وقد استُخدمت فعلاً في عدة متاحف كجهاز لتقديم الكلي للمعلومات المتعلقة بالآشياء المروضة .

ويكشف التعاون بين المتخصصين في حقبة ما قبل التاريخ وبين المتخصص في الأنثروبولوجية عن معلومات هامة بالنسبة إلى حقبة ما قبل التاريخ في مصر والتي لم يُكتب عنها شيء ، ونفس الشيء يقال أيضاً عن البحث العلمي المتعلق بفن الحزف الذي قام بفحص كليات الحزف الهائلة الموجودة في مواقع الاكتشاف .

وكانت مشاركة أعضاء المؤتمر في مجموعة العمل الخاصة بتاريخ الفن كبيرة إلى درجة ملحوظة . وقد أبرز ذلك أهمية فن مصر القديمة كوسيلة إعلام قوية الدلالة ؛ ولفترة طويلة لم يكن الفن المصري يُستخدم إلا ك توضيح للمقالات التاريخية والتاريخية الدينية . ولغير المتخصص بالذات يُقدّم الفن المصري أكثر المداخل مباشرة إلى الحضارة المصرية ويحتاج لهذا السبب إلى أسس علمية متقنة بصفة خاصة .

ويشكل إعلام الجمهور بهام وخطط علم الآثار المصرية جزءاً أساسياً من مؤتمر علماء الآثار المصرية الدولي الرابع . وقد نُظمت أربعة معارض خاصة بمناسبة هذا المؤتمر . فقد عُرضت بالمتحف الألماني لتاريخ الطب في إنجولست عيّات من طب

المصريين القدماء الذي يؤسس في بعض نوحيه لمرحلة التهديدية المباشرة للطب اليوناني ودائلي لطب العربي . وفي معرض ميونيخ تم فحص الموميا المصرية القديمة بأحدث الوسائل التكنولوجية . وقد أُنشأت هذه الفحوص إعادة تكوين صورة عن الهيكل التوزيعي لمدلات أعمار الشعب المصري القديم وعن نمط معيشته ، وكذلك معرفة الأعراض المرضية التي كانت تُشعّره وطرق معالجتها ، وتكشف لنا عن ممارسات دينية مثيرة للاهتمام ، مثل إستبدال الأضواء المنزوعة من بدن الميت بتأثيل صغيرة للألّة مصنوعة من الشمع . كما عُرضت رسوم أصلية خاصة بالتمثيلات الاستثنائية التي قام بها العلامة كلارل ريتشارد لسيوس من عام ١٨٤٢ حتى عام ١٨٤٥ في مصر والسودان بتكليف من ملك بروسيا . وساهمت في إثراء معرض لسيوس معروضات لصور فوتوغرافية لانتفاضة رائد فن التصوير الفوتوغرافي ج . أ . لورنت ، الذي زار مصر من عام ١٨٥٨ حتى عام ١٨٦٠ ويحمل بلفظاته ذات القطع الكبير لآثار وفنون معمارية إسلامية وفرعونية شاهداً لا يُقدّر بثمن لأعمال فنية اندثرت اليوم . وقد حظى معرض «الاكتشافات» ، الذي عُرض فيه فن مصري أُستُثيرت تُخفّ من مجموعات ألمانية جنوبية مختلفة قليلة الشهرة ، باهتمام خاص من جانب العلماء الذين وفدوا إلى المؤتمر في ميونيخ ، وشهد إقبالاً كبيراً من الجمهور المهم بمصر اهتماماً فائقاً . وأظهرت تماثيل صغيرة وأواني وأشكال برونزية وغمام ذات نوعية فنية عالية ، البراعة الفذة للفنانين المصريين القدماء في تمثيلهم لعالم مثالي منسجم . ولا تستطيع وسيلة أخرى خلاف الفن أن تعبر هكذا بصورة مباشرة عن أهمية مصر القديمة بالنسبة للإنسان الحديث .

لقد كان الاهتمام الكبير الذي قوبلت به هذه المعارض بمثابة دعوة للمشاركين في مؤتمر علماء الآثار المصرية الدولي الرابع في أن يستحثوا قُدماً لإستكشافاتهم لحضارة مصر العتيقة بعمق وتناول ، وكتابة تنبيه لجيلات المسئولة عن تمويل أبحاث علم الآثار المصرية لكي تني بالتزاماتها نحو الحفاظ على هذا التراث ومساعدة مصلحة الآثار المصرية في أداء واجباتها الجليلية .

لقد أثبت هذا المؤتمر أنه يحق لنا أن نتفاهل بمستقبل علم الآثار المصرية .

ملاحظات حول المؤتمر السادس عشر للعلوم والدراسات التاريخية

وعا أن شوتجارت ليست موطن هيجل والمدينة التي قضى فيها شتاوفنبرج (Staufenberg) (الرأس المخطط لانقلاب ٢٠ يوليو/تموز ١٩٤٤ ضد هتلر) بشابه غيب ، بل هي أيضاً عاصمة سيارة المرسيدس ، فقد قام عدد كبير من الحاضرين ببحث تاريخ السيارة منذ قرن وتأثيراتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ومن بين المواضيع الرئيسية الأخرى التي نوقشت في المؤتمر موضوع تاريخ النقطة لدى الأقليات والمغتربين والمهاجرين وبالنزات الهامشين ، أي تلك المجموعات التي لم تتمكن من صنع تاريخها أو من البحث فيه وأريد لها العيش في عالم بارد وصامت . الى جانب ذلك خصص المؤتمر يومين لبحث موضوع علم التاريخ ولناقشة ما يسمى بالتاريخ السردى والتاريخ البنوي . كما اهتم المؤتمر بدراسة أعمال ماكس فيبر Max Weber باعتبارها تمثل منهجية جديدة وتطوراً في الفكر التاريخي العالمي .

والذي ألفت الانتباه في هذا المؤتمر لإخسار الماركسية في الدراسات التاريخية بعد أن كانت مسيطرة سيطرة كبيرة حتى على المؤرخين الليبراليين . والسبب هو أن الماركسية ذبلت ذبولاً كبيراً في البلدان الشرقية كما أنها فقدت تأثيرها على المثقفين في البلدان الغربية ولم تعد الطريقة الأمثل لدراسة شؤون المجتمعات ومسائل التاريخ .

وبالرغم من أن التراث العربي يزرخ بالدراسات التاريخية العظيمة تشهد بذلك أعمال الطبري والمسعودي وابن خلدون وغيرهم فإن المشاركة العربية كانت ضعيفة للغاية . ولم يتمكن المؤرخون الذين قديموا من تونس ومصر والعراق والمملكة المغربية من سد الفراغ . غير أن المؤتمر كان بالنسبة لهم هاتماً إذ أنه سمح لهم بأن يستفيدوا من الدراسات المقدمة ومن أن يطرحوا وجهات نظرم في العديد من القضايا المتعلقة بمحاضراتهم وأيضاً في المسائل المتعلقة بعلم الآثار وبالفيلم كمصدر جديد من مصادر التاريخ .

ولا بد أخيراً من الإشارة الى الدور الفعال الذي قامت به رابطة المؤرخين الانان في التنظيم وفي اقامة أنشطة ثقافية ورحلات علمية على هامش المؤتمر . (حبيب جناحاني)

أكثر من أثنى مؤرخ من تسعة وخمسين بلداً حضروا المؤتمر السادس عشر للعلوم والدراسات التاريخية الذي انعقد في مدينة شوتجارت من ٢٥ الى ٣١ أغسطس (آب) ١٩٨٥ تحت إشراف رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية . وقد لقي هذا المؤتمر العالمي الهام عناية كبيرة من طرف المؤسسات العلمية الألمانية . كما أنه أبرز اهتمام علماء التاريخ المتزايد بالمسائل الكبيرة التي تشغل عصرنا .

ومن الطبيعي أن يكون عدد المؤرخين الألمان هو الأكثر باعتبار أن بلدهم هو المضيف . أما جمهورية ألمانيا الديمقراطية فقد أرسلت خمسين مؤرخاً . وكان هناك تسعون من المجر وخمسة وسبعون من بولونيا وستون من رومانيا واثنان وسبعون من الاتحاد السوفياتي . ويمكن أن نقول بأن الحضور المكثف للمؤرخين من الشرق الأقصى وبخاصة من الصين واليابان وكوريا الجنوبية هو من أمم ما يميز به هذا المؤتمر . غير أن المساهمة الأوربية كانت كبيرة .

أحد المشاركين الألمان قال مازحاً بأن المؤتمر يشبه بمعرض ضخم يعرض فيه المنتجون سلمهم على الناس . وهذه الملاحظة صحيحة الى حد كبير ، إذ أن الدراسات والبحوث التي قدمت كانت حثةً وجديدة شكلاً ومضموناً . حتى المؤرخين المختصين في المسائل المتعلقة بالمصور القديمة أبدوا اهتماماً بالأسئلة في هذا العصر والعديد من المواضيع التي تطرقوا اليها متصلة اتصالاً مباشرًا بما يحدث حالياً في العالم .

وقد تناولت البحوث مواضيع كثيرة تدور حول التاريخ البيزنطي وتاريخ البحار والثورة الفرنسية والحرب العالمية الثانية ، وتدور بالذات حول علم القبايس . وناقش المشتركون في المؤتمر جملة من المسائل الأخرى ، مثل علاقة المواطن بالادارة والصلة بين ثقافة العجبة وثقافة الشعب وبين الأشكال الديبلوماسية قديماً وحديثاً . بل أن البعض منهم مثل المؤرخ الفرنسي إيمانويل لورو لاندري Emmmanuel Le Roy Ladurie ذهب الى حد طرح مفهوم التسامح غير مختلف العصور . وكانت ذكرى انتصار الحلفاء في عام ١٩٤٥ أحد المواضيع الرئيسية التي بحثها المؤتمر . وقد خصص يوم كامل لدراسات شارك في إعدادها أكثر من خمسةة مشارك وتناولت مواضيع تتعلق بالمقاومة ضد الفاشية والنازية ويتاريخ اليابان إبان الحرب العالمية الثانية .

حول الملتقى الثالث والعشرين للمستشرقين الألمان

الموجه الى المتصوفين ، بينما تكلم ! . مايو (كولونيا) حول موضوع «العدالة عند ابن رشد» .

وفي محاضرة ذكية بارعة عالم بيتر باخن (غوتنجن) نصوصاً لابن عربي صيغت فيها شروح وتفسير صوفية قرآنية في قوالب شعرية على جانب كبير من الروعة والجمال الفني ، بينما أليث أولريش مارتزولف (كولونيا) وستيفان ليسدر (فرانكفورت) في محاضرتين حقيقة امتعاض الأساليب الثرية القديمة في النتائج الأدبي العربي . وألقى باحثان أعضاء جديدة على حقوق مهملات من البحث ، فتحدث هارالد مونسكي (هامبورج) حول الفتاوى كصدر تاريخي (ابنهاوزن) حول الأحزاب السياسية في مصر المعاصرة .

وخصصت محاضرتان لموضوع الاسلام في نيجيريا ، فقدّم جميل أبو النصر (بامرويت) شرحاً للنقاش الدائر حول تطبيق الشريعة في نيجيريا ، بينما قدّم ستيفان رايشموت تقريراً حول التعليم العربي الاسلامي في جنوب البقاع السلافية ، وتحدث قمران إقبال عن رحلة سرية الى البرازيل قام بها الموفد الديبلوماسي الفارسي مرزا أبو الحسن خان شيرازي عام ١٨٦٠ . ولم يُعزَم الأدب العربي الحديث من نصيبه أيضاً ، فقد قدّم فولف - ديتر ليكه (بهرت) الشاعر المصري أمل دنقل (١٩٤٠ - ١٩٨٣) ، الذي يكاد يكون مجهولاً في ألمانيا وتحدث د . ناجي نجيب عن موضوع «فقد الأب» في الرواية المصرية المعاصرة .

والخلاصة : فإن الاستشراق الألماني أخذ يغادر برجه العاجي ، بخطى وثيقة ، ولكن بكل تأكيد .

ستيفان فيلد (بون)

انعقد في مدينة فورتسبورج Würzburg ما بين السادس عشر والعشرين من سبتمبر (أيلول) الماضي المؤتمر الثالث والعشرون للمستشرقين الألمان . وفي هذا المؤتمر ، الذي ينعقد مرة كل ثلاث سنوات في العادة ، اتضح من جديد مدى الاهتمام العلمي الواسع الذي أصبح يولي للشرق الأدنى في حفل الدراسات الشرقية في العقود الأخيرة . وكما جرت العادة ، فقد دُعِيَ ضيوفٌ أجنب ، كما أقيمت محاضرات باللغتين الانجليزية والفرنسية ، بينما كان اشترك العلماء والباحثين العرب ، مع الأسف ، أقل بكثير مما كان عليه الحال في المؤتمرات السابقة .

وفي القسم الخاص «بالشرق الاسلامي» ، وهو أقوى أقسام المؤتمر عموماً ، قدّم العلماء أحدث نتائج أبحاثهم . وقد تعادلت في ذلك المواضيع المتعلقة بالمصر الكلاسيكي مع الأبحاث الخاصة بالقرنين التاسع عشر والعشرين . وكان أبرز الضيوف بدون شك رئيس وزراء إيران السابق ، الدكتور مهدي بزرگان ، الذي تحدث عن طريقة جديدة لترتيب الزماني للسور والآيات المكية والمدنية .

وقد جاءت الدراسات الدقيقة للمصادر المعروفة حتى الآن بنتائج مذهشة مفاجئة : إذ طرح أولريش هارمان (فرايبورج) في معرض دراسة سيرة العالم أبي الحامد القاسمي (٨٨٨ هـ/١٤٨٣ ميلادية) سؤالاً ساخراً غواه : «أينما أشد عبثاً على النفس : الحكم المستبد الجائر أم غطرسة زملاء الحرفة ؟» وكشف ميشائيل كولر (هامبورج) النقاب عن مظاهر جديدة من التعاون بين الفاطميين والصليبيين : «الفضل والقدس - ماذا توقعت مصر لنفسها من وعد من الحملة الصليبية الأولى ؟» وتحدث ب . رادتكه (بازل) حول النقد

معهد الشرق الألماني في هامبورج

نبذة مختصرة عن تطوره وإنجازاته لمناسبة عيد ميلاده الخامس والعشرين

والأوربية من داخل وخارج المنطقة. كما أسس وحدة خاصة للتوثيق تأسس لها أسبانيا مركز التوثيق للشرق المحمدي Dokumentationsstelle Mordern Orient وقد بدأت هذه الوحدة عملها في ١/١٠/١٩٦١. ومنذ البداية كان النشاط التوثيقي يتجهز بدارق الحاجة الظروف الاقتصادية وبعد الياض السياسية والاجتماعية والثقافية. ومنذ البداية أيضاً بدأ المعهد في سنة تأسيسه (١٩٦٠) بإعداد المجلدات العلمية وأورينت ORIENT التي تطورت بمرور الزمن لتصبح المجلد العلمية الرئيسية في ألمانيا المتخصصة بقضايا الشرق الحديث. وبس الساحة التطبيعية والأدبية، وفي خاصة تؤثر في نوعية واتجاهات العمل. يمكن تقسيم تاريخ المعهد إلى فترتين عظميتين: الفترة الأولى تمتد من ١٩٦٠ إلى ١٩٧١ والفترة الثانية تمتد من ١٩٧١ إلى ١٩٨٥. الفترة الأولى تتميز بالاندماج الكلي بجمعية الشرق الأدنى والأوسط تنظيمياً وإدارياً، حيث كانت لادارة الوحدة بيد الدكتور إرنست - فوگوست مرسشميت Messerschmidt الذي كان في الغالب الأول رجل اقتصاد. وفي الفترة كان نشاط المعهد يتركز على دراسة المشاكل الاقتصادية لبلدان المنطقة وعلى العلاقات التجارية والتمويلية بين ألمانيا وهذه البلدان وكان هذا الشرط ينتاسب مع الحاجة للمساء للمعلومات الموضوعية المراقبة عن الأنظمة والمعالج الاقتصادية المتغيرة، وإن لم يكن في استطاعته مع تلك الفترة الكبيرة كليا التمسك بالعاليم، شيه التكامل لهذا النوع من الدراسات في الساحة العالمية. وهكذا أصدر المعهد كتاباً موضوعياً عن اقتصاد وتطوره في بعض أقطار المنطقة بينا أفغانستان (١٩٦٦) ومصر (١٩٦٧) وبكستان (١٩٦٧) والعراق (١٩٦٩) ولبنان (١٩٦٩) كما نشر أبحاثاً ومقالات عن مواضيع معينة مثل مشكلة الأمية في إيران (١٩٦٦) والاشتراكية الجزائرية (١٩٦٩) والعلاقات بين الاشتراكية العربية والإسلام (١٩٦٩). وعن الاشتراكية العربي والنظام الدستوري في مصر (١٩٧٠) وعن التمانين الزراعية في باكستان. ومع هذا التركيز الشديد على المواضيع الاقتصادية لم يخلو نشاط المعهد كليا من المواضيع السياسية والاجتماعية. فقد أصدر المعهد مثلاً في عام ١٩٦٧ دراسة علمية شاملة تحتوي على ٣٤٥ صفحة عن مشكلة حدود عرب في قضية الجنوب العربي وتطوره التاريخي من ١٩٠٠ الى ١٩٦٧. وقبل ذلك كان كل من المؤلف (الدكتور أولريش فيركه) الذي كان يعمل في المعهد قد نشر في عام ١٩٦٣ دراسة تاريخية مفصلة من ٢٥٢ صفحة عن نشوء الدولة العربية وتحديد حدودها ومشاكل الحدود مع البلدان المجاورة.

في عام ١٩٧١ توفي للمع المشترك المعهد والجمعية الدكتور مرسشميت، وكانت وفاته بمثابة نقطة انطلاق في تاريخ المعهد، ذلك لأنها كانت سبباً لاجراء تغييرات جوهرية في التوجيه التنظيمي والإداري والتوثيقي للمعهد. مع التغييرات كانت ضرورة لتطور المعهد وزيادة اهتمامه بالمواضيع السياسية والثقافية المعاصرة حيث أن إردادات أجمية منطقة الشرق الأدنى والأوسط في السياسة الدولية قد حرم جزيران ١٩٦٧ وبعد أن بدأت عملية تبلور سياسة للجمعية اتجاه تلك المنطقة، أمم تغيير كان ذلك التشابك التنظيمي مع جمعية الشرق الأدنى والأوسط وتحقق الاستقلال القانوني والاداري والمعهد ومع جميع التغيرات لم يتركز أكثر ما كان على البحث العلمي والأصلي الذي يخدم العالم العلم يقول كليا من قبل الدولة. ومع هذا التغيير تدرج إنشاء المعهد إلى «مؤسسة المعهد الألماني للدراسات ما وراء البحار» التي تضم إلى جانب معهد المعهد الألماني أربعة معاهد أخرى يعطي نشاطها البحثي والتوثيقي كل العالم الثالث، وهي المعهد الألماني للدراسات أمريكا اللاتينية والمعهد الألماني للأبحاث العلمية ما وراء البحار. تعمل كل من هذه المعاهد ادارية وعلمية والقانونية المختلفة. ولكننا من ناحية الميزانية السنوية تشكل وحدة ادارية، كما تقوم بتنسيق نشاطاتها في بعض المجالات. جميع هذه المعاهد تقع في مدينة هامبورج في أبنية عمارة.

ومن الناحية التوثيقية تم وضع المعهد على قاعدة مستقرة عندما التزمت حكومة ولاية هامبورج والحكومة الاتحادية في بون بتحويل المعهد كليا، وهو مؤشر لزيادة

يحتفل معهد الشرق الألماني في هامبورج في هذا العام (١٩٨٥) بعيد ميلاده الخامس وعشرين، وفي خاصة حيدة لثلاثه الصده على هذا المعهد الذي يلعب دوراً متميزاً في تطوير العلاقات الألمانية مع بلدان الشرق الأدنى والأوسط.

من المعلوم أن عدد وحجم وطول معاهد الأبحاث التي تعمل في دولة صناعية معينة والتي تخصص بدراسة منطقة معينة من العالم تتناسب مع حجم وموقع المعامل السياسية والاقتصادية والثقافية التي تربط هذه الدولة بالصناعة تلك المنطقة. ومن المعلوم أيضاً أن هذه المعاهد تتأثر وتؤثر بسياسة الدولة ويمتطونها، وألمانيا لا تشد على هذه القاعدة العامة.

بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية وتنظيمها تتعامل نشاط الباحثين الألمان النشط بالقضايا السياسية والاجتماعية لبلدان الشرق الأدنى والأوسط ومراجعته نشاط المستشرقين ليقتصر في المواضيع الأدبية والتاريخية والأثرية. ولم تكن هناك في المراحل الأولى بعد تأسيس جمهورية ألمانيا الاتحادية (١٩٤٩) أبحاث لعماد، السبلة والاقتصاد الألمان تملق بقضايا الشرق الحديث، ذلك لأن قضايا العالم الثالث لم تكن في ذلك الوقت تلمع دوراً مهماً في السياسة الألمانية، ولأن الاهتمام الألماني كان يتركز على إعمار ما مرته الحرب وعلى معالجة قضية الوحدة الألمانية وبناء نظام سياسي اجتماعي جديد في ألمانيا. ومع هذا الحال حق في السنوات التي تلت استرجاع جمهورية ألمانيا الاتحادية لسيادتها في ميدان السياسة الخارجية بوحس انتباهات باريس ١٩٥٥.

وبكن الوضوح بدأ يتغير بصورة جوهرية من سياسة المحميات حيث بدأت السياسة الخارجية الألمانية تتغير مع في كوزها الشديد على قضايا البراج من الشرق والغرب وضيق الرخصة الألمانية وتوسع دائرة عملها لتشمل مجالات أخرى من السياسة الدولية وخاصة مشاكل العالم الثالث. لذلك نشأت حاجة كبيرة الى دوليات موضوعية عن البلدان النامية. وكانت هذه الحاجة تزداد بسبب لتسارع العلاقات الاقتصادية الألمانية مع عالم الثالث ومنه المنطقة العربية.

وفي الحقيقة بقي الاهتمام الألماني بمنطقة الشرق الأدنى والأوسط حتى أواسط الستينات يتركز على العلاقات التجارية والاقتصادية. وهذا الاهتمام يربط مع جانبه بمصاعد أهمية التجارة الخارجية بالنسبة لتطور الاقتصاد الألماني وحياة المواطنين. فلا عجب أن منذ أن تولى أروني المستقيم التي أشتتت لدراسة وتطوير علاقات ذات طبيعة اقتصادية و نائي المادرة لتأسيس معهد الشرق الألماني من أواسط الاقتصادية. فقد تم تأسيس أول مرة معرفة تجارية مشتركة في كانون أول ١٩٥١ وفي فترة التجارة الألمانية المهرية في الغامرة، شيه تأسيس جمعية الشرق الأدنى الألمانية في عام ١٩٥٢. وقد سبق هذه المخطوات الأولى تأسيس جمعية الشرق الأدنى والأوسط في شباط ١٩٥٠ من قبل عدد من الشركات الألمانية العاملة في الشرط الأوسط. وعلى يد جمعية الشرق الأدنى والأوسط هذه تم في مايو (أيار) ١٩٦٠ تأسيس مؤسسة الشرق الألمانية و «معهد الشرق الألماني». وقد أوضح رئيس الجمعية آنذاك الدكتور ألفرد توبفهر في خطابه في حفلة التأسيس التي أقيمت في ١٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٠ في فندق أتلانتيك ضرورة إنشاء مثل هذا المعهد الذي سيمثل على مع الفترة الكبيرة الثقافة في دراسة التطورات المعاصرة لمنطقة الشرق الأدنى والأوسط، كما أوضحه الوظائف الأساسية للمعهد التي تشمل في رعاية وتطوير العلاقات بين ألمانيا الاتحادية وبلدان الشرق في المجالات الاقتصادية والثقافية والسياسية، وأشار أيضاً الى الأثر المفرد على المعهد فيصبح مركز أبحاث رائد تمشي على عدة فروع علمية لدراسة القضايا المعاصرة للمنطقة الواقعة بين شمال إفريقيا وبكستان». وقد تم تبني هذه الأهداف في النظام الداخلي الأول لمؤسسة الشرق الألمانية الذي صادق عليه حكومة ولاية هامبورج بتاريخ ٨/مايو (أيار) ١٩٦٠.

لما قبل المعهد العلمي فقد قام المعهد بتكوين وتطوير مكتبة وأرشيف واقتناء عدد متزايد من الكتب والمجلات المتخصصة والجرائد اليومية بالعلم الشرقي

أعمال الدولة والحتم بعدد الشوق "لنحيط بمصر من حبه ولتوق كثير من وصل اليه العهد في الأوطى" خمسة ونسبية من حبه حري

بعد هذه التغييرات اتبع نشاط العهد في حالات الصحة والتوقيل والأعلام معوزة معوزة واتسعت شبكة علاقاته تأسست الأحدث في الداخل والخارج وأرانت أعداد مؤلفاته ونجحت موعية الشايج لسمي وتطورت بحمه «أورينت» ORIENT من حيث النوعية والجهد وأصبح يحظى بحجة ثريسية المتحصنة في الباب واستقطب أعانك كبر العلم، واكتسب بذلك سمعة طيبة على المستوى العلمي.

بعد التطورات لا تنفي نمواً في الأهداف السياسية للعهد أو في مساهمة اختصاصه وإياها تحسناً في الأداء. مساهمة الاختصاص في منطقة الشرق الأدنى والأوسط التي تشمل جميع الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية وفلسطين وإسرائيل وقبرص وتركيا وإيران وباكستان وأفغانستان. أما أهداف العهد الأسبسية فقد تركت بصمة عمداً في دستور مؤسسة الشرق الألبانية "العهد الذي قرنت حكومة مأمور بتاريخ 5/ديسمبر ١٩٧٦/ وأدنى نص مائه الثانية على ما يلي:

هدف المؤسسة هو تطوير وتنسيق علاقات بين جمهورية الدنيا الألفية ودول وشعوب الشرق الأدنى والأوسط في مجالات العلوم والاقتصاد والثقافة والسياسة. لتحقيق هذا الهدف ترمي المؤسسة مبدأ للأبحاث تخصص بدراسة القضايا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للشرق الحديث.

في إطار أحكام هذا الدستور توسع مجلس إدارة العهد إلى سبع شخصيات ومجلس أمناءه إلى ثمانية عشرة شخصية تضم شخصيات بارزة من أهل العلم والاقتصاد والسياسة.

أما بالنسبة للأولويات فقد بقيت المواضيع الاقتصادية تصدر أعمال العهد. وكان هذا الاهتمام في الفترة ١٩٧٢ - ١٩٨٥ يتصب على تحليل الأنظمة الاقتصادية لثقله ونصورت السياسة الاقتصادية وكيفية تطبيقها في الواقع المحلي والمجرب لإيجابية والسلبية في هذه النظريات والتطبيقات وكذلك على معالجة المشاكل الاقتصادية الزائدة، سواء أكان ذلك على مستوى القطاعات أو الأنظمة المفردة أو مجموعة مينة من البلدان أو المنطقة كلها ورعاتها الاقتصادية بتأطيل العالم الأخرى. من الدراسات الاقتصادية التي تتعلق بهذا إطار ونذكر على سبيل المثال كتاب عزيز الفراز عن تطور الاقتصاد العراقي - استراتيجية البعث في التطبيق (صدر عام ١٩٨١ وكتاب توماس كوشينسكي عن «العربية السعودية - قوة نمطية وبلد نائي» (١٩٨٢) وكتاب منير المين أحد وكورت ليتز عن «جمهورية السودان - الدولة والسياسة والاقتصاد» (١٩٨٠) وكتاب فولفغانغ - بيتر شينغل عن «باكستان في عتصام الرابع» (١٩٨٤). أما بالبنية الدراسات القطاعية فيمكن الإشارة على سبيل المثال إلى الدراسة التي أصدرها العهد عام ١٩٧٦ عن «قطاع النقل ومشاكلة في بلدان الشرق العربي وإيران» وكتاب هازر بورخي ليليب عن «الاصداف الرراعي في العربية السعودية في القرن العشرين» (١٩٨٤) ودراسة عزيز الفراز وأطون غلي عن «قطاع المصارف في المنطقة: هيكله، أهدافه وأهميته الاقتصادية» (١٩٨٥). ومن الدراسات التي تتعلق بمضمون المنطقة نذكر كتاب عزيز الفراز عن مساهمات التنمية العربية العالم الثالث ومؤسساتها التي صدر عام ١٩٧٧ وكتاب «مشاكل التنمية في البلدان العربية المعوزة للمنطقة الذي أصدره العهد في ١٩٧٧ أيضاً. أما الأبحاث التي أجراها العهد عن العلاقات الاقتصادية بين المنطقة (وخاصة الأقطار العربية وتركيا وإيران) من حبة أوروبا والمالبا واليابان من حبة تبة فقد نشرت عالمياً في المجلات العلمية المتخصصة وفي كتب كتبت تشمل مواضيع ومناطق أخرى. هذا وتشمل أعماله العهد أيضاً علاقة الألام والاقتصاد من الناحية النظرية والتطبيقية. وقد أعانك عزيز الفراز عن المصارف الإسلامية في المنطقة العربية وعن أسئلة النظام المصري في باكستان.

ومن الجدير بالذكر أن علاقات التعاون بين العهد ومساعد الأبحاث الاقتصادية في المالبا قد توسعت في الآونة الأخيرة، لا سيما بعد افتتاح أقسام متخصصة بالشرق الأوسط في بعض الجامعات (مثل جامعة برلين الحرة (برلين وإيس) وجامعة إرلانغن في نوربورج وجامعة الرور في بوخوم (فولكر مينهولس).

يكي الجهد السياسي لسمي ردب همتة في بدوره كشافة قدمه بعدد عزاء من الدراسات للمنطقة. لسياساته حبه وحبه وحرجية أسلوب المنطقية معطور. علاقت اللوى البولية بينه العرب والتوت وجميعا وصرية والكبرية بالمنطقة. وكان لثقله في نسبة له حلية يتكرر على الصعيد الأسبسية كشك التي فتحت مثلاً في كتاب عيزه. وديبر عن «العسكر والعسكر» في تركيزاً لثقله ١٩٤٥ - ١٩٧٢ «أحد أشهر العهد عام ١٩٧٨». وكتب ميتشيل والبرون عن «قضية في حريتن» (١٩٨٢). وكتب أحمد يحيى عن «ترك الحديتة - الانسحاب» و«الكتاب» (١٩٨٤). وكتب كبريت بيربر عن «التسليح والاقتصاد في منطقة عيب» (١٩٧٨). وقد عوحت «تطورات الداخلية في كل أقطار» القضية بـ في مقالات متخصصة وفي دروس شعبيون أخرى. وفي السنوات الأخيرة أزداد الاهتمام بالدراسات السياسية لبلادهم وحركات الإسلامية. حيث قدم العهد أحد عن هذه الحركات والتصورات في مصر العربية مثل مصر وسوريا والسعودية ونوس وفي تركيز ويزن وديكت. وأفغانستان. من المنشورات المهمة في هذا المجال نشر إلى كتاب حله دولاب عن «الديور السياسي للإسلام في الشرق الأوسط (١٩٧٩) وكذبه الثاني عن «الأصياء الإسلامي وسياسة التنمية» (١٩٨٢) وكتاب قرر رنده وأودو شينجيان عن «الإسلام في الوقت الحاضر - تطوره وانتشاره. الدولة، السياسة، القانون، الفتنة والدين» (١٩٨٤) وكتاب كارل «إميريش عويل عن «التفكير العلمية للتيعة في السياسة والدولة» (١٩٨٤).

أما في حقل السياسة الخارجية فقد أهد العهد كثير من الدراسات المتعلقة بتأثيرات المنطقة على الأمن في جميع حدة لتتوزع وحل الرراعات الإقليمية وتكثيل أقطار اصطدام المسلمين في المنطقة. لذلك أصدر العهد أحد عن شربيع التفارب والوحدة بين أقطار المنطقة. كما كتبت في الدراسات الدالة وتؤثر على قضية فلسطين ومشكلة الشرق الأوسط. والحرب العراقية الإيرانية، والصراع على منطقة الخليج، ودور مجلس التعاون الخليجي في تدعيم الاستقرار، والتزام منطقة القرن الأفريقي. ومشكلة الجزر العربية. وكذلك هو العهد دراسة سياسة المسكر والتربي والمسكر الغربي تجاه المنطقة وكان مثلاً يؤكد على أهمية قيام المجموعة الأوروبية بدور إيجابي على الزوايات الأسبسية في المنطقة. هذا العهد نشر نضط إلى دور العهد في الحوار العربي الأوربي وإلى كتاب كارل كايوز وأودو شينجيان عن «العلاقات العربية الإسلامية - الموامل المؤثرة بـ ومشاكل وحبة جديدة» (١٩٨١). وإلى كتاب السيد لوزول غلاؤز عن «لراع في انصهار العربية وثقائاته الإسلامية» (١٩٨٢). وإلى دراسة هنز ماسن عن «سياسة ليبيا الخارجية» (١٩٨٥).

أما في الميدان الثالث لنشاط العهد في دراسة التحولات الاجتماعية والثقافية في بلدان المنطقة. حيث أصدر العهد عدداً من البحوث المتعلقة بالتحول الاجتماعي والموامل للقررة له وبمطور أنشطة التربية والتعليم ومؤسسات التعليم الفني والتدريب المهني. هذا نشر نضط إلى الدراسة التي أجراها العهد عن التطور الاقتصادي الاجتماعي وتأثيره على النظام القانوني في العربية السعودية وإلى الأبحاث التي قام بها عزيز الفراز عن أنشطة التعليم الفني والتدريب المهني في الأقطار العربية والتي نشر بعضها في مجلة «أورينت».

في كل الميادين الثلاثة المذكورة أعلاه ازداد تعاون العهد مع بعض الجامعات والمعاهد ومراكز الأبحاث المتخصصة الموجودة في عواصم بلدان المنطقة، نذكر منها مركز الدراسات السياسية والفرانجوية بالأوام في القاهرة ومركز الدراسات الاستراتيجية في عمان/الأردن والجمعية الملكية العلمية في عمان/الأردن ومركز دراسات الخليج العربي في البصرة/العراق ومعيد السياسة الخارجية في القررة وجامعة قاز بونس في بنغازي/ليبيا.

أما فيما يتعلق بتألق تطور العهد في المستقبل المنظور فتباينت عوامل عديدة تمتد على التفاعل بين الازدياد قهرات أعضاء العهد العلمية والازدياد أهمية منطقة الشرق الأدنى والأوسط في السياسة الدولية وفي الاقتصاد العالمي وفي الحوار بين ثقافات العالم. وتفضل المالبا تديرياً من القسط التاريخي وأتقاهما نحو بلورة سياسة شرق أوسطية جديدة وشاملة.

ملاحظات حول رسوم پاول كلي

ان المعرض الأخير لهذه الرسوم كشف لنا عن «كلي» آخر يكاد يكون مجهولاً إلى حد اليوم . وكما هو معلوم فإنه خلال الخمس وعشرين سنة الأخيرة أصبح «پاول كلي» أكثر شهرة وزدادت أهميته قوة وتأثيراً . وقبل ذلك كان يبدو للناس شيئاً يتمصوف منزه في ركنه بعيداً عن صخب العالم أو بأسحر غامض يتيه في الألوآن والمخطوط . أما الآن فقد تبيننا لنا جميعاً صورة «كلي» المناضل للتحمس لطلانية الفن والفنان الواعي بمضلات العصر الحديث وبالأحداث الصغيرة والكبيرة التي كان يشهدها العالم في الفترة التي عاش فيها .

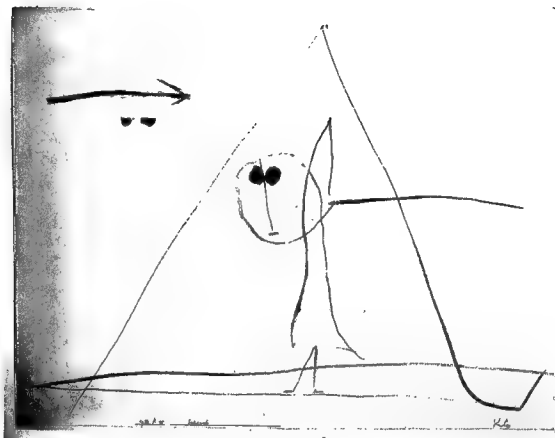
ان الرسوم المعروضة تمكن ثلثانتي «كلي» وأيضاً تلك العظمت الدافقة والحميئة التي كانت تمر مثل البرق في حياته . وكما نعود إلى فترة اقامته في Bauhaus . كان كلي فناناً كبيراً ملماً تماماً بفنه حين ناداه فالتر غروبيوس Walter Gropius لكي يدرس في ال Bauhaus . وكان كلي أيضاً متوقفاً مع أهداف وأفكار ال Bauhaus ، ولكنه وجد صعوبة في التوفيق بين الفنان والأستاذ . وما أثار انتباهه في تلك الفترة هو محاولة التوفيق بين العلوم - الرياضيات بصفة خاصة - وبين الأحاسيس والانفعالات . ولم يكن ذلك صعباً بالنسبة له وهو المعبج والمفتون بالموسيقى الكلاسيكية . ولهذا كانت الكثير من رسومه تذكرنا بيوهان سيبيتيان باخ Johann S. Bach وخاصة برائته Kunst der Fuge وأيضاً بعض التعاريف المساحية (قياس السلوح) . وقد طبع كل ال Bauhaus بطابع معين كما أن ال Bauhaus كان له تأثير كبير على كلي . ولهذا يمكن أن نقول بأن فترة اقامته هناك كانت من أغنى فترات حياته الفنية . ذلك أن ال Bauhaus كان قد لعب دوراً كبيراً في تنشيط الحياة الفنية وفي إعلاء الحقن الفني حياة جديدة .

ملاحظة : ال Bauhaus معهد للبحوث المعمارية والفنية والصناعات التقليدية . وقد أسسه فالتر غروبيوس سنة ١٩١٩ في فايمر Weimar ثم نقله إلى دسار Dessau سنة ١٩٢٥ . وفي سنة ١٩٣٣ تم إغلاقه . وفي سنة ١٩٣٧ بمت من جديد في مدينة شيكاغو الأمريكية . إن هدفه هو الوحدة بين الفن والعلوم والتقنية . وأهم الأساتذة الذين قاموا بالتدريس في هذا المعهد إضافة إلى پاول كلي ، الرسام ليونال فاينينغر L. Feininger وفاسيلي كاندينسكي Wassily Kandinsky والمعماري الكبير ميس فان دير روي Mies van der Rohe .

ليس في الأدب وحده وقع التعبير عن تلك الحيرة المشوبة بالتلق والحوف والتي أحس بها البعض خلال القرن التاسع عشر عندما كان التفاؤل طامعياً على النفوس بسبب التطور الصناعي والتقني . فالرسم هو أيضاً كان حافراً . وقد شارك في التعبير عن ذلك الشعور الذي كان أكثر حدة في أوساط الصانين والمبدعين بصفة خاصة . ويمتد پاول كلي واحداً من أكبر الرسامين الرياديين في هذا المجال . وكان وعيه بمخطر العلم على حياة البشرية مبكراً . ولهذا السبب جاءت جل أعماله عاكسة لهذه الحيرة الكبيرة التي انفجرت في ما بعد بأكثر حدة في أعمال السرياليين والوجوديين وأيضاً في رولبات وأشعار ما يسمى بالجيل الضائع في أمريكا . ويمكن أن نقول أن عدداً كبيراً من الرسامين التجريبيين الذين ظهرتوا فيها بعد استغادوا من أعمال پاول كلي . وكانت أعماله منطلقاً لم البحث عن أبعاد أخرى لرسومهم ولوحاتهم . ان كلي يذهب بعيداً في الكشف عن المجهول والخفي والغامض . وهو يرى أن الفن أداة للبحث عن البعد الآخر وللولوج إلى العالم البدائي والمثالي والتقديم . فالعالم الرئي والمحسوس ليس العالم الوحيد . انه يكاد يكون طبقة خشة وغليظة تغطي هوالم أخرى سرية ومجهولة . كبيرة وصغيرة . واضحة ومخفية في نفس الوقت . غير أن پاول كلي يحاول نفاقاً أن يقوم في رسومه (نقصد الرسم بالقلم) بآلم يده في لوحاته أي الربط بين العالم المحسوس والرئي وبين العالم الخفي والغامض . وهو يحاول أيضاً أن يجعلها يتحاوران وذلك من خلال طريقة تعتمد الصرامة العلمية والشكلانية التجريدية . كأن يتكرر أشكالاً ودوائر ومساحات وخطوطاً واقعية ، أي عالماً متكاملأ يعود بنا إلى الحدود الأسطورية والخرائفة للكون .

عرضت لأول مرة رسوم پاول كلي في معارض قميت في برلين وميونخ وبرن خلال خريف ١٩٨٥ .

واحد من هذه الرسوم يحصل عنوان رسم ويبدو واضحاً أن الرسم كان أكبر كمي وعنصره الأساسي . وملاذه حين يبحث ويعلم ويشاهد . تحت الحط الذي يتجد دون ملل على هناك لا شكل ولا دلالة . وتحتوي الأعمال المعروضة على ٤٩٠٠ رسم كان كلي يحتفظ بها لنفسه . ولهذا السبب لم يكشفها الناس الا عقب وفاته .



بازل كي : خجل ، ١٩٣٣ .

Fig 2



١٩٣٣ ٨ ١٩٣

م. ك.

عمرات حريمي ، ١٩٣٣ .

الأحداث الثقافية في ألمانيا

جوائز أدبية

لألمانيا. وتمنح الجائزة سنوياً إلى كتاب «يعبر عن فكر مستقل ويساهم في تشجيع الحرية الفردية والشجاعة الأدبية والفكرية والفنية، معطياً بذلك دفقات مهمة للوعي المعاصر في الإحساس بالمسؤولية».

حصل هابرماس على الجائزة تقديراً لكتابه الصادر هذا العام بعنوان «الاضطراب الجديد» (نار زوكربرغ للنشر). وهابرماس هو السادس في صف الشخصيات التي حازت على الجائزة حتى اليوم، حصل عليها من قبل كل من رولف هوخوبت، وروبير كوتشه، وفرست فيان، وفالتر دير كس وأانيا روسموس - فيننجر .

معارات في اللغة الألمانية

جائزة «أدبرت فون شامبو» الأدبية هي الأولى من نوعها في ألمانيا الاتحادية، فهي مخصصة «لأعمال كتاب لغتهم الأولى ليست الألمانية» وإن كانوا يكتبون بها . واللام الذي تحمله دلالة رمزية واضحة ، فصاحبها - شارل أوليف دي شامبو - كان هو الآخر رجالة متجولاً بين عالمين مختلفين مثله مثل أرثر أورين ، ورفيق شامي . فقد هجر وطنه فرنسا واستقر في ألمانيا ولم يتعلم الألمانية إلا في سن الرابعة عشرة ونشر أهم أعماله الأدبية والشعرية بهذه اللغة الغربية عليه بعد أن غيّر اسمه إلى أدلبرت فون شامبو .

ولد أرثر أورين باستبول في سنة ١٩٣٩ وغادرها إلى ألمانيا الاتحادية في عام ١٩٧١ حيث انخرط في صفوف العمال الأتراك . ويعيش أورين الآن ككاتب متفرغ في برلين الغربية . يمثل أورين أدب العمال الأجانب الصادر باللغة الألمانية ، واهتمه مركز على قضية التمايز بين الأجانب والألمان . ومسرح الأحداث في رواياته وأشعاره حي كرويتسبرج في برلين الغربية ، وغالبية سكانه من المهاجرين الأتراك الذين نزحوا خلال العشرين سنة الماضية قادمين من قرى تركية ومدنها وليس في نيتهم إلا أن يقضوا سنوات قلبية في هذا العالم الغريب عليهم ، ويعودر السنوات تحول زوجه الموقت إلى إقامة مستتعة . وهذه الإقامة المستتعة - غير المقصودة - هي الموضوع الرئيسي في طبوغرافية أورين الشعرية .

أما رفيق شامي فهو من مواليد عام ١٩٤٦ بمشقي وينتمي إلى أسرة من الحرفيين . بدأ رفيق يطمح بالكتابة في وقت مبكر بتشجيع من والديه ونشر محاولاته القصصية الأولى في مجلة المدرسة ثم في الصحف العادية . شمر عن صديق له من دمشق ألبساً في تحرير مجلة حداثية باسم «المنطلق» ، وظهرت له قصتان في عام ١٩٦٥ ، الأولى بعنوان «البصلة» والثانية هي «الوردة الحمراء» .

حاول رفيق مبكراً أن يوفق بين الأسلوب الوصفي الواقعي القديم من الغرب وبين تعكسات الواقع الشرقي الذي يعيشه يومياً . فهو يرى أن ذلك الأسلوب الوصفي المتأخر بالواقع عاجز عن التعبير عن هذا الواقع ذاته

(١) قدمت أكاديمية اللغة والأدب في دارمشتات جائزة السنوية هذا العام إلى الكاتب المسرحي هابرماس . وهذه الجائزة المسماة «جورج بيوختر» هي أهم جائزة أدبية في جمهورية ألمانيا الاتحادية . هابرماس هو مواطني جمهورية ألمانيا الديمقراطية ويبلغ من العمر ٥٦ سنة ، وقد منح الجائزة تقديراً لأعماله المسرحية ولشجسته كخروج المسرح ، هذا النشاط الذي هو أيضاً «محاولة يتصدى بها للبؤس السائد في عصرنا» .

(٢) حاز الكاتب الروائي ريجفريد لنس على جائزة توماس مان من مدينة هامبورج . وكلفت هامبورج قد تبرعت بهذه الجائزة بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد توماس مان عام ١٩٧٥ ثم أصبحت هذه الجائزة تمنح كل ثلاث سنوات إلى كاتب «تتبع من بين نيات أعماله الروح الانسانية التي تتميز بها كتابات توماس مان» . قدمت الجائزة للمرة الأولى إلى الناقد الأدبي بيتر دي مندلسون مؤرخ حياة توماس مان ، ثم إلى الكاتب أولفه يونسون (١٩٧٨) وبعدها إلى الصحفي والمؤرخ يواخيم فيست (١٩٨١) .

(٣) أهدت مدينة كولونيا جائزة الأدبية هذا العام إلى الشاعر الأديب هانس ماجنوس إنسنسبرجر . وإنسنسبرجر البالغ من العمر ٥٥ سنة من رواد الأدب الألماني ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد عالج في العديد من أعماله قضايا العالم الثالث ، بدأ إنسنسبرجر هذا العام في إصدار سلسلة جديدة بعنوان «الكتب الأخرى» يقدم في إطارها الأدباء والكاتب الأجانب إلى القارئ الألماني . (انظر باب «كتب جديدة حول العالم العربي») .

وقد نجحت «الكتابة الأخرى» في إصدار كتاب لفت الأنظار في معرض فرانكفورت الدولي للكتاب ، وهو مجلد بعنوان «علامات مائية في الشعر» - نيات من جميع العصور والأزمنة والبلدان ، كتاب مطالعة لكل يوم ولألف ليلة وليلة .

جائزة للأدب الإفريقي

خصصت إذاعة صوت ألمانيا جائزة للأدب الإفريقي حصل عليها لأول مرة هذا العام الكاتب النيجيري أوكي كالو وزميله من السودان الطيب مهدي . والجائزة مخصصة للدول الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى . هذا وقد كانت رواية «الظهر البين بين» للكاتب الكيني نجوي تانج تويو على رأس قائمة أفضل الأعمال الأدبية وأكثرها رواجاً للقائمة من إذاعة جنوب غرب ألمانيا في شهر أبريل الماضي ، ويشترك في وضع تلك القائمة ٢٥ ناقداً أدبياً .

جائزة الأخوين شول ليورجن هابرماس

أعدت دور النشر والمكتبات في بافاريا جائزة القائمة بالاشتراك مع مدينة ميونيخ إلى الفيلسوف سورج هابرماس رائد علم الاجتماع المعاصر في



الحكي رفيق الشامي

وتركيا والبلاد العربية . تفتت صورة الدولة الوطنية المتجانسة وتغير معها الأدب من خلال «أدب قادم من الخارج» يقدم عنا رؤية مغايرة وغتلفة عن تلك التي نمتلكها حول أنفسنا ويفتح لنا آفاقاً جديدة ننظم بها ما استحي علينا فهمه الى الآن . إضافة الى ذلك يتيح لنا هذا النوع من الأدب فرصة أن نبي جسوراً بين الثقافات والتفاهات تحملنا الى شفاف أراضٍ أجنبية لم نكتشف بعد .

عندما سئل رفيق شامي عما اذا كانت أعماله هي تعبير عن «إستيعاباً فن البقاء على الحياة» أجاب بقوله : « - بالطبع ، فالبلاد العربية هي أرض مجهولة هنا ، وسائل الاعلام مليئة بالأخبار السياسية ، أما جوهرينا الحضاري - ذلك الجزء المكلل لذلك والترتبط بها . فهو مغلف بصمت كثيف» .

ليس «أدب العمال الأجانب هو ما يبتينا ، شطنا الشاغل هو الوطن الذي هجرناه ، نعرّف به كي يسيل التفارب بيننا .»

بتمفحاته ، فلا يقتصر الواقع على الادراك الحسي التجريبي فقط وإنما يشمل أيضاً أعلامنا وتصوراتنا ورغباتنا . فأصبحت الخرافة أو الأسطورة هي النوع الأدبي المفضل الى نفسه ، يحاول أن يتقرب به الى وجدان القارئ الألماني .

القضية الأساسية في أعمال رفيق شامي هي قضية الغريب اللامنتهي ، كأن مصر الأطليل شاغله الأدبي ، فني كل قصصه تتوضح خيرة الانثناء الى الألفية ، يعر عنها بأساليب الضغفاء في السيطرة على قدمهم : التهم والمخبرية ، وذلك الحس الرفيف الذي يتميز به الغريب والذي يساعده على المقاومة في مجتمع قاس .

إن جائزة أدولفرت فون شاميسو» هي أول «عاقلة من نوعها للاعتراف بوضع اجنابي قائم قد غير الكثير من ثقافة ألمانيا الاتحادية وقطاط الحياة فيها خلال العشرين سنة الماضية . نمي بذلك وجود ملايين الأجانب بين صفوف الشعب الألماني ، على رأسهم العمال المهاجرين من جنوب أوروبا

كتب جديدة حول العالم العربي

بسام طيبي :

اللام ومشكلة الاستيعاب الحضاري للتغير
الاجتماعي

٣٥٠ صفحة ، دار النشر زور كلب
فرانكفورت / ماين ١٩٨٥ .

دريس بن محمد الشرحادي :

حياة كلها تقلبات

دونه وترجمه الى الانجليزية بول باولز
Paul Bowles

الترجمة الالمانية : آن روت شراوس
Anne Ruth Strauss

سلسلة «المكتبة الأخرى»

من إصدار هانس ماجنوس إيتنسبرجر

دار النشر جرينو
Grenò

نوردلنجن ١٩٨٥

عبد عيسو :

الرواية الألمانية في العالم العربي

مجموعة «تحليلات ووثائق»

كتب في الأدب الجديد

المجلد ١٨ ، ٣٠٣ صفحات

دار النشر بيتر لانج
Peter Lang

فرانكفورت / ماين ١٩٨٤

«المكتبة الشرقية»

تعهد دار النشر بيك C. H. Beck في ميونيخ إصدار سلسلتها

بعنوان «المكتبة الشرقية» ابتداءً من خريف ١٩٨٥ .

تسعى هذه المجموعة الى تقديم أعمال بارزة من الانتاج الأدبي

لشعوب آسيا من الشرق الأقصى الى الشرق الأوسط وشمال

إفريقيا .

وتبدأ المجموعة بكتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ ، يتيمه

«اللس والكلام» لتنجيب محفوظ ثم «أخبار النساء» لابة

القيم الجوزية .

كتب مصورة

١ - مصر

النص من إعداد إريكا فونشه
Erika Wünsche

والصور ميخائيل شفيريرجر
Michael Schwerberger

دار النشر بروكمان
Bruckmann-Verlag

ميونيخ ١٩٨٥

من روائع الطرق في تركيا

النص من إعداد مارتين أموده
Martin Amode

والصور لفرنر نويمايستر
Werner Neumeister

دار النشر زودويتشر
Süddeutscher-Verlag

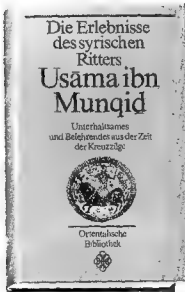
أثو فيلمز / إدموته هيلر

البيدو .

١٠٤ صفحات

دار النشر باول ليست
Paul List

ميونيخ ١٩٨٥





صورة غلاف كتاب «البدو» .

قُولف ديتريش فيشر «لقاءات مع أدب الشعوب الإسلامية في أوروبا»

هنا إردمان «ملاحظات حول جوهر الفن الإسلامي»
فريتس شحات «إسهام الاستشراق الألماني في تفهم الإسلام»

مجلة التبادل الثقافي
السنة الخامسة والثلاثون ١٩٨٥
الفصل الأول

«أل الفرحة لي داخلي»
تجربة الهجرة وصورة ألمانيا في الأدب التركي المعاصر .
يصدرها جونت ف . لورنس ويوكسل پارزكيا
نصوص مختارة وصور من رسم فنانيين أتراك مقيمين في
جمهورية ألمانيا الاتحادية .

مجلة التبادل الثقافي
العالم الإسلامي بين التراث والتقدم .

الجزء الأول
السنة الخامسة والثلاثون ١٩٨٥
الفصل الثالث

يصدرها معهد العلاقات الخارجية في شتوتغارت .
مجموعة وثائق عن «نقاش توينجن السادس حول قضايا
التنمية» ، عُقد في ١٧ و ١٨ مايو ١٩٨٥ .
تتضمن المحاضرات التالية :
هانس كونيغ «المسيحية والإسلام»
حدي عزلم «الإسلام بين العقيدة والتصوف»
ماتياس شرام «العلوم الطبيعية في الإسلام وتأثيرها على
الحضارة العربية» .

* * *

مركز علمي جديد للدراسات التركية ببون

٣ - تنظيم وتشجيع التعاون مع الألمان المتخصصين في شؤون تركيا .

٤ - تأسيس مركز للمعلومات يتولى تنسيق النتائج البحثية العلمية وتسجيل الإصدارات ، وإضافة إلى ذلك تقديم معلومات عن التطورات الاجتماعية والثقافية بتركيا .

ولتأسيس المركز أهمية عظمى ترجع إلى أن هناك ١.٤ مليون مواطن تركي أو ٢.٥ بالمئة من جملة السكان الألمان يعيشون حالياً في ألمانيا الاتحادية . وهؤلاء الأتراك تحولوا ومنذ هجرتهم إلى ألمانيا في غضون الخمسة وعشرين سنة الماضية من عمال مؤقتين إلى مقيمين مستنديين . ويشكل ذلك بالطبع مشاكل اجتماعية وسياسية طويلة المدى للبلدين - ألمانيا وتركيا - لا يمكن التغلب عليها إلا بتكثيف الجهود المشتركة .

تم في ١١ أكتوبر ١٩٨٥ افتتاح مركز جديد للدراسات التركية برئاسة الدكتور فاروق سن بالمركز العلمي بمدينة بون - ألمانيا الاتحادية . وتجدر الإشارة بأن تكاليف تأسيس هذا المركز قد تولتها الرابطة العلمية الألمانية .

والمفرد الرئيسي للمركز هو إمداد المهتمين في ألمانيا الاتحادية بمعلومات وأقية عن المجتمع التركي وثقافته وتاريخه ليساهم من خلال ذلك وعن طريق تكثيف التعاون بين البلدين في تحسين العلاقات الألمانية - التركية .

هذا وقد حُدِدت مشاريع عمل مختلفة يمكن تفصيلها كالآتي :

١ - تكثيف العلاقات العلمية بين ألمانيا وتركيا عن طريق البحث العلمي المشترك .

٢ - تنظيم وتنفيذ مشاريع البحوث المشتركة مثل المحاضرات والمؤتمرات واتصالات الأخصائيين من البلدين .

تحية الى السيد هانس كالا وزوجته السيدة سيغريد



السيد كالا بصحبة زوجته السيدة سيغريد .

كان ذلك في ربيع ١٩٨١ حين تعرفنا على السيد هانس كالا وزوجته السيدة سيغريد .

كنا في المركز الثقافي الدولي بالمحامات حيث عقدت ندوة خاصة بالشعر التونسي الجديد - وكان هناك أجنبيان - رجل وامرأة - يتلعنان باهتمام شديد من البداية الى النهاية المناقشات والمحاضرات . كما أنهما حضرا الأسبقيات الشعرية التي أقيمت خلال تلك المناسبة . وفي البداية اعتقدنا أنهما مجرد سائحان فصوليان . ولكن الأستاذ رشاد الحزراوي مدير المركز أعلمنا في آخر الندوة بصفتما الحقيقيتين .

وطول الستين المحس الأخرية التي أمضاها السيد «كالا» سفيراً لبلاده - ألمانيا الاتحادية - في تونس ، حرصت زوجته السيدة سيغريد على إقامة عدة جلسات فكرية وأدبية في بيتها حضرتها عدة شخصيات أدبية تونسية من أمثال الكاتب الكبير الأستاذ عمود المسعودي والأستاذ عبد العزيز فاسم والدكتور المحبيب المنحاني والفاس الراحل البشير حزيق وعدد كبير من الشعراء والأدباء الشباب . كما حضرها أيضاً الروائي السوداني الكبير الطيب صالح والشاعر الفلسطيني الراحل مهن بيسو والشاعر المصري عبد المصطفى حجازي وأيضاً أدونيس وسلمي الخضراء الجبوبي وكال أبو ديب وحلم بركات وغيرهم من الأدباء والمثقفين العرب . وطوال هذه المدة أيضاً نادراً ما تغلب السيد «كالا» وزوجته السيدة سيغريد عن حضور ندوة ثقافية أو فكرية عقدت في تونس . كما أنهما كانا يزوران باستمرار المدينة التاريخية الشهيرة : القيروان . وكانا شديدي الانبهار بأثارها وبأصالتها . وقد قدم السيد «كالا» منحة خاصة لفرقتها المسرحية ، كما أنه وقبل أيام من إحالته الى التقاعد - أغسطس ٨٥ - أسقى قراراً يقضي بأن تعمل مؤسسات ألمانية مختصة بالعمل على صيانة الوثائق الخاصة بجامع عقبة نافع .

وقد عاش السيد «كالا» وزوجته السيدة سيغريد احدى عشر سنة في مناطق مختلفة من العالم العربي : بنگاد (١٩٥٨ - ١٩٦١) ، الخرطوم (١٩٧٧ - ١٩٨٠) ، وتونس (١٩٨٠ - ١٩٨٥) . كما أمضيا ثلثي سنوات في الهند والباكستان . وهذا ما أكسبها خبرة كبيرة في شؤون العالم العربي وحقن حواسها للغة والثقافة العربية وأيضاً لدراسة التاريخ العربي - الإسلامي والتقاليد والعادات . وقبل ذلك درس السيد «كالا» وزوجته السيدة «سيغريد» اللغة العربية في جامعة بون .

والسيد «كالا» وزوجته السيدة «سيغريد» هـ ابنا مستشرقين كبيرين : السيد بول كالا (١٨٧٥ - ١٩٦٤) الذي كان يدرس في جامعة بون

والسيد «هنريك سامويل نيبيرغ» (١٨٨٩ - ١٩٧٤) الذي كان يدرس في جامعة «أوسلا» بالنرويج .

وقد أعدت السيدة «سيغريد» دراسات باللغتين الألمانية والسويدية حول الأدب العربي نشرت في مختلف المجلات والبرائلد السويدية والألمانية . كما ترجمت عدداً من قصائد أدونيس والدرويش والبياتي وغيرهم من الشعراء . إضافة الى ذلك يعود للسيدة «سيغريد» الفضل في إعداد مؤتمر كبير للشعر - السويدي - العربي انعقد بمدينة «لوند» (جنوب السويد) في خريف ٨٤ وحضره عدد من الشعراء والنقاد العرب ، وكان له صدى كبير في الأوساط الثقافية السويدية . وفي الفترة الأخيرة تم تعيينها رئيسة لمعهد الشرق في ستوكهولم .

ويسعد جملة **فكر وفن** أن تحيي السيد «كالا» والسيدة زوجته مجهودها الكبير الذي بذلته من أجل تقوية الروابط الثقافية بين ألمانيا والعالم العربي . كما أنها توجه شكرها الخاص للسيد «كالا» الذي يعد من أكبر للمافعين عن هذه الروابط وعن وجودها واستمرارها .

تحية الى الدكتور هورست شيرمير

في الصحف والمجلات الألمانية . وتصرف ثلاثة أرباع الميزانية المقدرة بـ ٤٠ مليون مارك من أجل النشاطات الثقافية بصفة خاصة . وقد تأسست مجلة **فكر** و **فن** ضمن هذا التوجه العام المتميز بالانفتاح على الثقافات الأخرى عامة ، وبتعميق الصلات الثقافية بين المانيا الاتحادية والعالم العربي خاصة . وأول من أشرف على هذه المجلة ها : الأستاذ ألبرت نايله Albert Theile والأستاذة أني ماري شميل Annemarie Schümmel اللذان حرصا لمدة عشرين سنة على الاعتناء بها وتطويرها حتى أنها بفضل تلك الجهود الرائعة التي بذلها ، أصبحت تحظى بقيمة خاصة في الأوساط الثقافية والفنية في جميع أنحاء العالم العربي . وتحولت مع مرور الزمن الى إدارة جيدة للتعريف بمختلف الانتاج الثقافي والفني في ألمانيا ، ومنيراً للكثير من الشعراء والكتاب العرب . وقد توقفت هذه المجلة لفترة قصيرة في بداية الثمانينات لأسباب خاصة ثم عادت للصدور في شهر كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٣ . ويعود الفضل في ذلك الى الدكتور هورست شيرمير نفسه الذي أبدى منذ توليه منصب رئيس INTER NATIONES نشاطاً كبيراً بهدف الحفاظ على علاقات ثقافية جيدة مع بلدان العالم بأسره . ويتكون المجلس المشرف على هيئة ادارة مجلة **فكر** و **فن** من الأستاذ فيرنر إندنه Werner Ende من جامعة فرايبورج ، والدكتور أودو شتاينباخ Dr. Udo Steinbach من المعهد الشرقي بهامبورغ والاستاذ ستفان فيلد Stephan Wild من جامعة بون . وابتداء من أوائل يناير/كانون الثاني ١٩٨٦ ، يخلف الدكتور ديتير برانكي Dr. Dieter Benecke الدكتور هورست شيرمير على رأس INTER NATIONES والذي كان مديراً لقسم التخطيط في Konrad- Adenauer-Stiftung في بون . تحية للدكتور شيرمير من أجل مجهوداته الكبيرة والموقف التي بذلها في مجال تعزيز التعاون بين المانيا الاتحادية ومختلف بلدان العالم .

في أواخر سنة ١٩٨٥ ، يغادر الدكتور هورست شيرمير Dr. Horst Schirmer منصبه كرئيس لمنظمة INTER NATIONES الذي شغله لمدة طويلة ، ليصبح سفير البلاد في «مونتيفيديو» . وقد ولد الدكتور هورست شيرمير سنة ١٩٣٣ في برلين . وبعد أن أنهى دراسته في العلوم السياسية والقانونية في جامعة كولونيا ، شغل عدة مناصب دبلوماسية في سفارات بلاده في كل من مدريد ودبلن وذلك قبل أن يتم تعيينه في القسم الخاص ببلاده في مقر الأمم المتحدة بجنيف ثم ملحقاً ثقافياً في مدينة مكسيكو . وبعد ذلك تم إلحاقه بالقسم السياسي التابع لوزارة الخارجية الألمانية في بون حيث اهتم أساساً بالمسائل المتعلقة بالتعاون بين البلدان الأوروبية في اطار المجلس الأوروبي .

ومنذ سنة ١٩٧٩ يشغل الدكتور هورست شيرمير منصب رئيس لمنظمة INTERNATIONES . ومعلوم أن هذه المنظمة تأسست سنة ١٩٥٣ . وهي تهدف أساساً الى تعميق العلاقات الثقافية بين المانيا الاتحادية وكافة بلدان العالم . كما أنها تسعى من خلال عملها الى إعطاء صورة واضحة للأجانب حول الثقافة الألمانية وذلك من خلال التعريف بالأدب الألماني وتشجيع حركة الترجمة من الألمانية الى اللغات الأخرى وعرض الأفلام الألمانية وتوزيعها ، وتمكين الأجانب من تعلم اللغة الألمانية . الى جانب ذلك تهتم INTER NATIONES بالضيوف الأجانب وتمكنهم من كل المعلومات التي يستحقونها بخصوص المانيا الاتحادية (الاقتصاد ، السياسة والثقافة الخ) . و INTER NATIONES جهاز مستقل بذاته ، ويشرف على تسييره مجلس إداري يمكن أن ينتسب إليه ، ليس فقط ممثلون عن الحكومة الألمانية وإنما أيضاً شخصيات سياسية تابعة لمختلف الأحزاب المتواجدة ضمن البرلمان الألماني BUNDESTAG والشخصيات السياسية والثقافية المستقلة ، والكتاب والصحافيون الذين يتمتعون بنفوذ كبير سواء في الرايو أو



FIKRUN WA FANN 42

